من أسرار النظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة سورة "التحريم" نموذجا

الدكتور

صبحي إبراهيم عفيفي المليجي

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية - فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

العدد الرابع والعشرون

للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

الجزء الثالث

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

من أسرار النظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة سورة "التحريم" نموذجا

صبحي إبراهيم عفيفي المليجي

قسم البلاغة والنقد ـ بكلية اللغة العربية ـ فرع جامعة الأزهر بالمنوفية ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: pro_sobhy@yahoo.com

الملخص

إن المتدبرَ لكتاب الله المجيد يلحظ اهتمامه الكبير بالأسرة، لأنها المحضن التربوي الرئيس للمسلمين، ولأنها أساسُ المجتمع ونواتُه الأولى، كما أن صلاح المجتمع وصحته واستقراره يتوقف على صلاحها وصحتها واستقرارها والعكس.

وتمثّل ذلك الاهتمام في بيان النظم الحكيم كيفية اختيار الزوجين بعضَهما، وإيضاحِه ماهية العشرة بينهما، ثم الحديثِ- في أكثر من موضع- عن حقوق الأبناء على الآباء، وحقوق الوالدين على أولادهما، ثم في علاجِه المشاكل التي تحصل بين طرفي الأسرة وركنيها، بغية المحافظة على قيامها، ورغبة أكيدة في استمرارها، وأخيرا في بيانه الحازم عن الطلاق، وحقوق كل واحد من الطرفين عند وقوعه، بأسلوب يدعو إلى الخوف من الله تعالى، ويحث على أن يكون الإيمان به- جل شأنه- واقعا عمليا يتحلى به المؤمنون والمؤمنات عند حصول الطلاق، أو الميل إلى الفراق.

ومن ثمّ قام هذا البحث من أجل دراسة بلاغة النظم القرآني في علاجه بعض مشاكل الأسرة، واختار لذلك سورة "التحريم" لأنها نزلت- في الأساس- لتعالج مشكلة حدثت في بيت النبوة، ثم انطلقت منها لتضعَ منهجا لبيوت المسلمين، يتحققُ به استقرارُها وسعادتُها، وتكونُ معه واحةً للراحة والاطمئنان، وصومعةً للعبادة والتبتل، لا ساحةً للمناكفات والمكايدات الشاغلة عن الأهداف العظمى والغايات النبيلة.

وكان القصد من وراء ذلك ما يلي:

أولا- استجلاء بعض أسرار الأسلوب القرآني، وبيان أوجه الإعجاز البلاغي لتراكيبه وهو يتحدث في هذا الشأن المهم.

ثانيا- إثراء مكتبة البلاغة العربية بعمل يخص بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن مشاكل الأسرة المسلمة بالدرس البلاغي، والتحليل الأسلوبي المُوَضِّح أثرَ هذا الموضوع، وأثرَ السياق الوارد فيه على منهاج البيان القرآني عنه.

ثالثا- أن تجتهد هذه الدراسة في استظهار أسباب الهداية، التي يتسمُ بها كلامُ الله تعالى، من خلال التعمق في بيانه، والغوص في أسراره، عساها أن توفق إلى شيء يساعد بيوتنا في النهوض من كبوتها، ويأخذ بيدها من أجل العودة إلى التمسك بهذا المعين الصافي، الذي لا يضل من تمسك به، وحرص على تطبيق ما فيه.

الكلمات المفتاحية: التحريم - نداء النبي - عتابه- التهديد بالطلاق- الاهتمام بالبيوت- مساعدة المرأة زوجها على القيام بمهامه ـ منافسة النساء للرجال في العبادة والقنوت .

ISSN 2356-9050 الترقيم الدولي
ISSN 2636 - 316X الترقيم الدولي الإلكتروني

حولية كلية اللغة العربية بجرجا
مجلة علمية محكمة

One of the secrets of the Quranic systems in treating family problems Surah "Forbidden" as a model

Sobhi Ibrahim Afifi al-Meligy
Department of Rhetoric and Criticism - Faculty of Arabic Language - Branch of Al-Azhar University in Menoufia - Arab Republic of Egypt
Email: pro_sobhy@yahoo.com

Abstract

The mastermind of the glorious book of God notes his great interest in the family, because it is the main educational incubator for Muslims, and because it is the basis of society and its early intentions, and the community's health, health, and stability depend on its goodness, health, stability and vice versa.

This interest was represented in the wise systems statement of how the spouses choose each other, and clarify what the ten are between them, then talk - in more than one location - about the rights of the children over the parents, the rights of the parents over their children, then in his treatment of the problems that occur between the two sides of the family and their two corners, in order to preserve Its establishment, and a firm desire to continue it, and finally in its firm statement on divorce, and the rights of each of the two parties when it occurred, in a manner that calls for fear of God Almighty, and urges that faith in him - most importantly - be a practical reality for believers and believers when divorce takes place, Or the tendency to parting.

Then this research was carried out in order to study the rhetoric of the Qur'anic systems in treating some of the family's problems, and so he chose Surah "Prohibition" because it was revealed - basically - to address a problem that occurred in the house of prophecy, and then proceeded from it to set a method for the homes of Muslims, to verify its stability and happiness, and be With him an oasis of comfort and reassurance, and a silo for worship and celibacy, not an arena for contradictions and intrigues that occupy the great goals and noble ends.

The intention was to:

First - clarifying some secrets of the Qur'anic style, and explaining the rhetorical miracles of its structures while speaking in this important matter.

Second- Enriching the Arabic Rhetoric Library with a work related to some Quranic verses that talk about the problems of the Muslim family with the rhetorical lesson, and stylistic analysis clarifying the effect of this topic, and the effect of the context in it on the curriculum of the Qur'anic statement on it.

Third - That this study endeavors to explore the reasons for the guidance that characterizes the words of God Almighty, by looking deeper in his statement, and diving into his secrets, hoping that she will succeed in something that helps our homes rise from their repression, and takes her hand in order to return to adherence to this certain appointed , Who does not stray from those who stuck to it, and was keen to apply something in it.

Keywords: The prohibition - the call of the Prophet - his blame - the threat of divorce - caring for homes - Help the woman her husband to carry out his duties - women's competition for men in worship and worship

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، واتّبع النور الذي أنزل معه إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فإن المتدبرَ لكتاب الله المجيد يلحظ اهتمامه الكبير بالأسرة، لأنها المحضن التربوي الرئيس للمسلمين، ولأنها أساسُ المجتمع ونواتُه الأولى، كما أن صلاح المجتمع وصحته واستقراره يتوقف على صلاحها وصحتها واستقرارها والعكس، إلى غير ذلك من الأسباب التي لا مجال لسردها.

وتمثّل ذلك الاهتمام في بيان النظم الحكيم كيفيةَ اختيار الزوجين بعضَهما، وإيضاحِه ماهية العشرة بينهما، ثم الحديثِ- في أكثر من موضع- عن حقوق الأبناء على الآباء، وحقوق الوالدين على أولادهما، ثم في علاجِه المشاكل التي تحصل بين طرفي الأسرة وركنيها، بغيةَ المحافظة على قيامها، ورغبةً أكيدة في استمرارها، وأخيرا في بيانه الحازم عن الطلاق، وحقوق كل واحد من الطرفين عند وقوعه، بأسلوب يدعو إلى الخوف من الله تعالى، ويحث على أن يكون الإيمان به- جل شأنه- واقعا عمليا يتحلى به المؤمنون والمؤمنات عند حصول الطلاق، أو الميل إلى الفراق.

ومن ثمّ تملّكتني رغبةٌ قوية، أخذت تلح عليّ إلحاحا من أجل دراسة بلاغة النظم القرآني في بيانه عن هذا الموضوع المهم، قاصدا من وراء ذلك إلى تحقيق ما يلي:

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أولا- استجلاء بعض أسرار الأسلوب القرآني، وبيان أوجه الإعجاز البلاغي لتراكيبه وهو يتحدث في هذا الشأن، انطلاقًا من اقتناعي بأننا إذا أردنا أن نتعرف ما يجب وما ينبغي أن يكون فيه فإن الطريق إلى ذلك هو حسن استحضار البيان القرآني عنه، وحسن فهمه وفقهه، لأنه البيان الذي لا يعدله بيان آخر في هذا الموضوع أو في غيره.

ثانيا- إثراء مكتبة البلاغة العربية بعمل يخص بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأسرة المسلمة بالدرس البلاغي، والتحليل الأسلوبي المُوَضِّحِ أثرَ هذا الموضوع، وأثرَ السياق الوارد فيه على منهاج البيان القرآني عنه، والقاصدِ إلى إثراء ما استخلصه أئمةُ البلاغة من أصول البيان بحسن النظر في عَلِيِّ البيان، الذي "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"(فصلت ٤٢).

ثالثا- أن تجتهد هذه الدراسة في استظهار أسباب الهداية، التي يتسمُ بها كلامُ الله تعالى، من خلال التعمق في بيانه الواضح عن الأسرة، والغوص في أسراره، عساها أن توفق إلى شيء يساعد بيوتنا في النهوض من كبوتها، ويأخذ بيدها من أجل العودة إلى التمسك بهذا المعين الصافي، الذي لا يضل من تمسك به، وحرص على تطبيق ما فيه.

ولما كان الموضوع جدَّ وسيع، وأقيمت لأجله دراسات كثيرة، آثرتُ أن أتناول إحدى السور القرآنية، التي لم يسبق أحد- حسب علمي- إلى دراستها، والتي تعالج مشاكل البيت المسلم، وتوضح ببيانها الراقي المعجز الطريق إلى استقراره، وقيام كل فرد من أفراده برسالته، لتنعمَ البيوت بالراحة والسكينة والهدوء، وينطلقَ أفرادُها لإسعاد أسرهم وإسعاد البشرية من حولهم.

وكانت السورة المصطفاةُ للدراسة والتحليل هي سورة "التحريم"، لأنها نزلت- في الأساس- لتعالج مشكلة حدثت في بيت النبوة، ثم انطلقت منها لتضعَ منهجا لبيوت المسلمين، يتحققُ به استقرارُها وسعادتُها، وتكونُ معه واحةً للراحة والاطمئنان، وصومعةً للعبادة والتبتل، لا ساحةً للمناكفات والمكايدات الشاغلة عن الأهداف العظمى والغايات النبيلة.

واختار البحث للوقوف على أسرار نظم السورة وبيانها عن هذا الموضوع المنهجَ التحليلي القائم على استقراء الجزئيات وتحليلها وتأويلها لاستنباط كليات ضابطة، والذي يسائل- أيضا- خصوصيات التراكيب، ويتمثل نظرية النظم، التي هي أشكل بمثل هذه الدراسات.

وقد فرض هذا المنهج على الدراسة أن تقوم بتعرّف مقصود السورة ومغزاها، لما له من أهمية في الدراسة التحليلية لكلماتها، وتراكيبها، وأساليبها[1]، ثم إثباتِ موقع السورة على مدرجة السياقين التنزيلي والترتيلي، ثم تقسيمِها إلى معاقد، مع بيان علاقة كل معقد منها بمغزى السورة ومقصودها، وإيضاحِ وجه ارتباطه بما سبقه من معاقد السورة وأجزائها، تم القيامِ بدراسة نظمه دراسة تحليلية كاشفة عن مزايا الأساليب والفنون البلاغية التي اصطفاها النظم القرآني، وأثرِها في تحقيق المعنى المراد، لتصل في الخاتمة إلى حركة ذلك المعنى والغاية التي انتهى إليها.

---

(١) المغزى الكلي أو المقصود الرئيس هو مفتاح خزائن ما في السورة من لطائف المعاني ورقائقها وحقائقها، لأنه المهيمن على كل عنصر من عناصر البيان فيها، ويرى بعض نقدة النصوص الإبداعية أهمية السعي إلى استكشاف المغزى الدقيق، الذي يهيمن على أجزاء النص، والذي يصالح بين الفقرات المتعارضة، ففي كل نص لابد أن يكون ثم معنى ينسجم مع كل الفقرات، وبه يكون كل جزء منه متلائما متصلا ببقية الأجزاء. العزف على أنوار الذكر د. محمود توفيق سعد ٧٣، ٧٤ بتصرف.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد أوجب ذلك المنهج أن يأتي هذا العمل في مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة:

- قامت المقدمة ببيان الأسباب التي دفعت إلى اختيار هذا الموضوع، مع إيضاح المنهج المتبع في دراسته.
- والمطلب الأول توقف بالدراسة والتحليل مع مطلع السورة، وكان عنوانه: من أسرار النداء والعتاب.
- والمطلب الثاني قام بدراسة معقدها الثاني، وجاء بعنوان: من أسرار الترغيب في التوبة والتهديد بالطلاق.
- والمطلب الثالث توقف بالدراسة مع المعقد الثالث، وكان عنوانه: من أسرار الدعوة إلى الاهتمام بالبيت.
- والمطلب الرابع قام بدراسة معقدها الرابع، وكان بعنوان: من أسرار الإبانة عن مهام الزوج وأعماله.
- والمطلب الخامس توقف بالدراسة مع خاتمة السورة، وكان عنوانه: من أسرار التمثيل والمقابلة بين امرأتي نوح ولوط وامرأة فرعون ومريم ابنة عمران.
- ثم جاءت خاتمة الدراسة لتكشف عن أهم النتائج والتوصيات التي انتهت إليها.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يجزي كل من أعان عليه بكلمة أو رأي أو دعاء خير الجزاء، وأن يحقق الغاية التي قام لأجلها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بين يدي السورة الكريمة

سورة "التحريم" من السور التي نزلت بالمدينة المنورة، بعد سورة "الحجرات"، ويقال لها سورة "المُتَحَرِّم"، و سورة "لِمَ تُحَرِّمُ"، ويقال لها أيضا: سورة النبيﷺ، وآياتها اثنتا عشرة آية باتفاق أهل العلم(١).

مقصودها:

والقصد من نزولها- كما يقول البقاعي- الحث على الأدب مع الله عزوجل، ومع رسولهﷺ، ومع سائر العباد، والندب إلى التخلق بحسن المعاشرة، لا سيما مع النساء، اقتداء بالنبيﷺ في حسن عشرته، وكريم صحبته، وبيان أن الأدب الشرعي تارة يكون باللين والأناة، ومرة بالسوط وما داناه، وأخرى بالسيف وما والاه(٢).

وبجانب ذلك فإن المتدبر للسورة الكريمة يلحظ أنها تسهم- مع غيرها من سور القرآن الكريم- في إيضاح الشكل العام للبيت المسلم، وبيان الأسس التي يقوم عليها، والأفكار والمبادئ الداعمة لاستقراره، والتي ينبغي أن ينشغل بها أفراده، من الرجال والنساء على السواء.

سبب نزولها:

نزلت السورة الكريمة توجيها وتعليقا على حادثة وقعت في بيوت النبيﷺ، وهي حادثة تعددت فيها الروايات:

---

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- الألوسي البغدادي- تحقيق د. السيد محمد السيد، وسيد إبراهيم عمران ٢٨/ ٤٥٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- برهان الدين البقاعي ٨/ ٤٣- تحقيق: عبدالرازق المهدي- دار الكتب العلمية-بيروت.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

– حيث روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهﷺ يَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا فَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَنْ أَيَّتُنَا دَخَلَ عَلَيْهَا فَلْتَقُلْ لَهُ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ قَالَ: لاَ وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ فَلَنْ أَعُودَ لَهُ وَقَدْ حَلَفْتُ لاَ تُخْبِرِي بِذَلِكِ أَحَدًا(١)

– ورواية أخرى تقول: إن النبيﷺ وطئ مارية في بيت حفصة، فغضبت وعدّتها إهانة لها، فوعدهاﷺ بتحريم "مارية" على نفسه، وحلف بهذا، وكلفها كتمان الأمر، فأخبرت عائشةَ رضي الله عنها(٢)، فنزلت السورة التي معنا؛ لتحقيق المقاصد التي سبق بيانها.

يقول أحد البلاغيين: "ومع ما لاختلاف الروايات من أهمية كبرى، وأثر عظيم في الدرس البلاغي، فإن الاختلاف في سبب النزول هنا أمر لا ينبغي أن نهتم له، ونسعى جاهدين ونشق على أنفسنا في إثبات صحة إحداهما وبطلان الأخرى،ذلك أن الذي ترتب عليهما شيء واحد هو مناط الاهتمام وبيت القصيد، وهو أن النبيﷺأراد استرضاء زوجه فحَرَّم على نفسه شيئا أحله الله تعالى له،وفي ذلك من التشديد والتضييق على نفسه ما لا يخفى(٣).

ومع صحة هذا الكلام ووجاهته إلا أنني أميل إلى أن الرواية الأولى أولى بالقبول، لأنها تتوافق مع ما فُطر عليه الرسولﷺ من الرحمة والعدل والتقدير للناس بصفة عامة، ولأزواجه بصفة خاصة، مع الحرص على مشاعرهن وعدم إيذاء أية واحدة منهن، أليس هو القائل "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي"(٤).

---

(١) يراجع: صحيح البخاري– كتاب التفسير– باب سورة التحريم.

(٢) يراجع: روح المعاني ٢٨/ ٤٥٦.

(٣) يراجع: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم– د.عبدالعظيم المطعني ٤/٢٦٨– مكتبة وهبة.

(٤) سنن ابن ماجة– تحقيق محمود خليل– كتاب النكاح– باب حسن معاشرة النساء– برقم ١٩٧٧– مكتبة أبي المعاطي.

موقع السورة على مدرجة السياق الترتيلي:

سورة "التحريم" تأتي في سياق التلاوة بعد سورة "الطلاق"، والمناسبة بينهما جد واضحة، حيث إنهما يتعلقان بالأزواج من النساء حقوقا وواجبات، فسورة "الطلاق" توضح حقوقهن في حالة الطلاق، وسورة "التحريم" تبين- بأسلوب فيه نوع من الحزم- الواجبات المنوطة بالزوجين تجاه بعضهما وتجاه بيتهما، كما أن كلتيهما تعالج مشكلات تحدث في البيت المسلم، وتضع لها حلولا تضمن له التماسك والالتئام والتعاون على أداء رسالته، وإنجاز مهمته.

وثم وجه آخر للتناسب بين السورتين أشار إليه أحد المفسرين في قوله "فإن هذه السورة متواخية مع التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبيﷺ، وتلك مشتملة على طلاق النساء، وهذه على تحريم الإماء... ولمّا كانت تلك في خصام نساء الأمة ذكر في هذه خصومة نساء المصطفىﷺ؛ إعظاما لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة، فأفردن بسورة خاصة"(١).

(١) روح المعاني ٢٨/ ٤٥٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مطلع السورة

من أسرار النداء والعتاب

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ" (التحريم ١-٣).

علاقة الآيات بالسياق:

بعد أن ختم الله سبحانه سورة "الطلاق" بإحاطة علمه، وتنزل أمره بين الخافقين، وذلك في قوله "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا"(الطلاق ١٢) دل أول "التحريم" على إعلائه أمور الخلق، و بيان إحاطته عزوجل بأمر وقع بين خير خلقهﷺ وبين نسائه اللاتي من خير النساء، واجتهد كل في إخفاء ما تعلق به منه، فأظهره جل جلاله عتابا لأزواج النبيﷺ(١)، ونشرا للعبرة والفائدة، وتحقيقا للأغراض التي سبقت الإشارة إليها.

مزايا النظم وأسراره:

نزلت سورة "التحريم" وفي صدرها- كما هو معروف- عتاب رقيق من الله سبحانه وتعالى لرسولهﷺ؛ لأنه شدد على نفسه، وحرمها شيئا أحله الله عزوجل، وأباح له ولغيره التمتع به، وقبل بدء العتاب كان النداء الإلهي بـــ

(١) نظم الدرر ٨/ ٤٣ بتصرف.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ"(١)، وهي صيغة تتضمن كثيرا من معاني التفخيم والتنبيه والتوكيد، لأنها تتكون من "يا" و"أي" و"ها".

فـ "يَا" من "حروف التنبيه التي للبعيد، لجواز مد الصوت بالألف ما شئت، ثم كثر استعمالها حتى صارت لنداء البعيد أو من في حكمه، كالنائم والساهي والغافل أو الحاضر معك، وهى أم حروف النداء"(٢)، "وأكثرها استعمالا، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف سواها، وقد ينادى بها القريب توكيدًا"(٣).

يقول الدكتور أبو موسى: "ولم يقع في القرآن نداء بـ"أي"، كما لم يقع فيه نداء بالهمزة(٤)، وإنما استعمل في النداء "يَا" دون غيرها، لأنها أندى وأنفذ"(٥)، ويقول الزمخشري: "يَا" حرف نداء، وضع في أصله لنداء البعيد...، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنىّ به جدا، فالداعي يقول في جؤاره: "يَا رَبِّ"، و"يَاالله" وهو

---

(١) نودي الرسولﷺ في كتاب الله الحكيم سبع عشرة مرة، كلها إما بوصف النبوة أو الرسالة، أو بوصف مناسب للحالة التي كان عليها، كما في قوله تعالى "يا أيها المزمل" وقوله "يا أيها المدثر"، ولم يناديﷺ في القرآن باسمه مجردا قط.

(٢) رصف المباني في شرح حروف المعاني- للمالقي- تحقيق أحمد الخراط ٤٥١-٤٥٢.

(٣) مغنى اللبيب- ابن هشام الأنصاري ٤٢٩/٢- دار الفكر- بيروت.

(٤) هذا كلام فيه نظر، فقد احتملت بعض القراءات المتواترة أن تكون الهمزة للنداء في قوله تعالى "أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً"(الزمر٩)، حيث قرأ ابن كثير ونافع وحمزة، "أمن" بتخفيف الميم على أن الهمزة للنداء، والتقدير: يا من هو قانت. يراجع: النشر في القراءات العشر ٣٦٢/٢، السبعة في القراءات لابن مجاهد تحقيق د. شوقي ضيف ٥٦٧، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للشيخ أحمد البنا، تحقيق د. شعبان محمد اسماعيل ٤٢٨/٢، مغنى اللبيب ١٩/١، ٤١٨. وكذلك الهمزة في قوله تعالى: "أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا.." (فاطر٨)، حيث قرأ طلحة "أمن" بغير فاء.. والمعنى: تفكر و ارجع إلى الله، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء. يراجع: البحر المحيط ٣٠١/٧.

(٥) من أسرار التعبير القرآني- د. محمد أبوموسى ٤٣- مكتبة وهبة.

أقربُ إليه من حبل الوريد، وأسمَعُ به وأبصرُ... استقصارًا منه لنفسه، واستبعادًا لها من مظان الزلفى وما يقرّبه إلى رضوان الله ومنازل المقربين، هضما لنفسه وإقرارًا عليها بالتفريط في جنب الله"(١).

أما "أَيْ" فهو: اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، وهو واسطة إلى نداء ما فيه أل، ولابد من إردافه بنعت يزيل إبهامه، وإلا لا يُعلم المقصودُ بالنداء(٢)، فـ "أَيْ" هو: الذي يعمل فيه حرف النداء، والاسم التابع له صفته التي توضحه وتبينه، والتوضيح بعد الإبهام فيه من التأكيد والتمكين ما فيه، "فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإبهام، تشوقت نفس السامع إلى معرفته، فإذا ما ذكر موضحا قـرَّ في النفس وتمكن منها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم"(٣).

و"هَا" حين تدخل على نعت "أَيْ" في النداء، فهي واجبة التنبيه على أنه المقصود بالنداء(٤)، وهي في هذه الصيغة تعاضِدُ حرف النداء وتقويه، فتزيده قوة وتأكيدا.

والسر في كثرة النداء بهذا التركيب في كتاب الله المجيد؛ هو"استقلالُه بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة، لأن كلّ ما نادى الله له عباده- من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه- أمورٌ عظام، وخطوبٌ جسام،

(١) الكشاف للزمخشري- تحقيق مصطفى حسين أحمد ٨٩/١- دار الكتاب العربي- بيروت.
(٢) الأزهية في علم الحروف- على بن محمد الهروي- تحقيق عبد المعين الملوحى١٠٧- مجمع اللغة العربية بدمشق.
(٣)الإيضاح- شرح الشيخ عبدالمتعال الصعيدي١١٧/٢- مكتبة الآداب- القاهرة.
(٤) مغني اللبيب ٢/ ٤٠٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، إذ هم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ"[١].

و"النَّبِيُّ" من النبأ، وهو: الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر: نبأ إلا إذا تضمن هذه الأشياء الثلاثة (الفائدة – العظيمة– العلم أو غلبة الظن)، وحق الخبر الذي يقال فيه: نبأ، أن يتعرّى عن الكذب.. و"النبوّة" اسم من النبأ، وهى: سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده، لإزاحة علتهم في أمر معاشهم ومعادهم، و"النَّبِيُّ" مشتق من النبأ لكونه مُنبِئا بما تسكن إليه العقول الذكية"[٢].

ويبدو لي أن نداء الرسولﷺ بهذه الصيغة في مقام العتاب يحمل من الدلالات البلاغية ما يلي:

أولا– ملاطفة الرسولﷺ ومؤانسته وتهيئته لقبول العتاب[٣] بالإقبال عليه وندائه بما يفيد تفخيمه وتوقيره، "حيث اختار النظم الحكيم لندائه صيغةً تفيد ذلك ببنائها الصوتي والدلالي، تأملْ مقاطعها (يَا– أيُّ– هَا)، لتجد نفسك وقد

---

(١) الكشاف ١/ ٩٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن– للراغب الأصفهاني– تحقيق محمد أحمد خلف الله– مادة نبأ– ومادة نبي.

(٣) مما يلحظ في عتاب الله تعالى لنبيهﷺ أن النظم القرآني درج على تهيئة الرسولﷺ ومؤانسته قبل توجيه العتاب إليه، كما في ندائه بوصف النبوة في الآية التي بين أيدينا، وكما في التعبير عنه بالوصف ذاته في سورة الأنفال "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ""(الأنفال ٦٧)، وكما في تقديم العفو على العتاب في قوله تعالى""عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ" (التوبة ٤٣)، وكما في تحاشي خطابهﷺ في هذا المقام إجلالا له عن المواجهة، ولإيهام أن الذي حدث صدر عن أحد غيره، في قوله تعالى""عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى"(عبس ١–٢)، ولعل هذا أول الدروس التربوية التي تهم الأسرة بخاصة والمسلمين بعامة، فالعتاب برهان محبة، وهو يتطلب لغة حانية، يملؤها التقدير والاحترام، لا تهيل التراب على الفضائل، ولا تضخم الهفوات والصغائر، حتى يكون مقبولا لدى المُعاتَب، حريا بالإصغاء إليه، والاستجابة لمن يقوم به.

انتابها شعور يملؤها بالإجلال والمهابة والتوقير للمُنادَى، فإذا ما جئ بعد ذلك بـــ"النّبِيّ" اقشعر البدن من الإجلال، وأسبلت الأعين من المهابة والتوقير للرسول الكريمﷺ".

ثانيا- تكريمه ﷺوالتحبب إليه، لندائه بصيغة تجمع معاني التنبيه والإثارة والتشويق إلى صفته ﷺ التي اختاره الله تعالى لها وهى"النبوة"، مما يجعله "نداء حبيب لحبيب، ومن ثم لم ينادَ إلا بـــ"يا" الذي هو أم حروف النداء"(١).

ثالثا- التذكير بمهام النبوة ومتطلباتها، وعدم الانشغال بتظاهرات النساء عنها، يقول أبو حيان: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" نداء إقبال وتشريف وتنبيه بالصفة على عصمته مما يقع فيه من ليس بمعصوم"(٢).

رابعا- لفت النظر إلى أهمية ما تتضمنه السورة من تعاليمَ وتوجيهاتٍ تَهُمُّ الأمةَ كلَّها، لأنها تتصل بالبيت ورسالته، فمع أنها نزلت بسبب موقف حدث في بيت النبوة إلا أن ما ترتب عليه من تنبيهات ليس خاصا بالرسولﷺ وحده، ولا مقصورا على نسائه دون غيرهن، يقول البقاعي: "ناداه بأداة البعد وهو أقرب أهل الحضرة، مع أنها معدة لما يكون ذا خطب جليل ومعنى جسيم، وفيه إيماء إلى تنبيه الغير وإسماعه، إرادةً لتأديبه وتزكيته وتهذيبه"(٣).

*****

(١) شذرات الذهب- د. محمود توفيق سعد ٧٩- بدون.
(٢) البحر المحيط- أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٨٩- دار الفكر- بيروت.
(٣) نظم الدرر ٨/ ٤٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وبعد النداء يُوَجَّهُ العتابُ إلى النبيﷺ في قوله تعالى"لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ"- بأسلوب الاستفهام الذي يَهُزّ النفس، ويوقظ العقل، ويُحركه إلى فهم مقاصد الكلام وإدراك مراميه، لأنه في أصل الوضع يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، كي يقع الجواب في موقعه، وهذا من شأنه أن يجعل المخاطب يوجِّهُ كل اهتمامه إلى ما يُلقى، ليتمكن من فهمه، ثم الإجابة عنه، يقول الإمام: "واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه لتنبيه السامع، حتى يرجعَ إلى نفسه... ويعيَ بالجواب"(١)، مما يعني أن غرضه الرئيس هنا: تحريكُ العقول ودفعُها إلى التفكير والتوقف عن تحريم الحلال وحرمان النفس منه، مهما كانت الدوافع والأسباب.

بجانب أن التعبير به يدل على أن النبيﷺ ما فعل ذلك إلا لأنه رجا منه الصلاح والفائدة، على الرغم مما فيه من إرهاق وإتعاب، يقول ابن المنير: "وإنما قيل له "لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ" رفقا به وشفقة عليه وتنويها لقدره ولمنصبهﷺ أن يراعي مرضات أزواجه بما يشق عليه، جريا على ما ألف من لطف الله تعالى ورفعه عن أن يُحْرَجَ بسبب أحد من البشر... ليظهر اللهُ كمال نبوتهﷺ بظهور نقصانهم عنه"(٢).

(١) دلائل الإعجاز- الإمام عبدالقاهر الجرجاني- تحقيق محمود شاكر/ ١١٩- مطبعة المدني- جدة.
(٢) الانتصاف- لأحمد بن المنير الإسكندري بهامش الكشاف ٥٦٢/٤.

ويمكن أن يكون الغرض من الاستفهام هو النفي[١]، ويكون المعنى:"لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله، قاصدا بذلك تطمين أزواجك اللائي تمالأن عليك لفرط غيرتهن، أي: ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في العشرة، إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن"[٢]، وفيه كذلك من التنبيه والتقدير ما لا يخفى على كل ذي لب بصير.

وأستبعد أن يكون الاستفهام هنا للإنكار، لأن ذلك مجاف لمقام النبي ﷺعند ربه عزوجل، كما أنه لا يتناسب مع النداء الموحي بالتفخيم والتوقير، ولأن الإنكار لا يُقصد إليه إلا حين يتعمد المخاطب الخطأ المرة تلو الأخرى، وهذا لم يحدث من الرسولﷺ، بجانب أن الذهاب إليه يخالف ما درج عليه النظم الحكيم في عتاب الرسول الكريمﷺ من التلطف والتقدير.

والفعل "تُحَرِّمُ" معناه: تمنع، ولا يقصد به "التحريم المشروع بوحي من الله تعالى، إنما هو امتناع لتطييب خاطر بعض من تحسن العشرة معه"[٣]،

---

(١) دلالة الاستفهام على النفي أو غيره من المعاني قضية بلاغية عرض لها كثير من العلماء قديما وحديثا، وهم بين قائل: بأن المعاني غير الحقيقية المستفادة من الاستفهام وغيره من أساليب الإنشاء الطلبي معان مجازية (ينظر: عروس الأفراح ٢/ ٢٩٠، والمطول/٢٣٥، وحاشية السيد على المطول /٢٣٥)، وقائل بأنها من باب الكناية (ينظر: حاشية الدسوقي ٢/ ٢٩٢)، وقائل بأن هذه المعاني من مستتبعات التراكيب (ينظر: عروس الأفراح ٢/ ٣٠٦)، ولست هنا بصدد المفاضلة بين هذه المذاهب، حيث قام بذلك شيخ البلاغيين المحدثين الدكتور: محمد أبو موسى، وتابعه في ذلك الدكتور: محمود توفيق سعد، والدكتور: محمود موسى حمدان، وأراني مقتنعا بوجهه نظرهم في القول بأن هذه المعاني من مستتبعات التراكيب (ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف– الطبعة الثانية – ٣٦٥، دلالات التراكيب– ٢١٦، الاستفهام القرآني دقائق ورقائق– د. محمود توفيق سعد ٧/ وما بعدها، أساليب الإنشاء الطلبي وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية– د. محمود موسى حمدان– مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية– العدد ١٢).

(٢) التحرير والتنوير– للطاهر بن عاشور ٢٨/ ٣٤٦– دار سحنون للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) المرجع السابق.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

عبر به على سبيل الاستعارة التصريحية التي استعير فيها التحريم للامتناع؛ لإبراز عزم النبي الأكيد، وإصراره الشديد على عدم فعل ذلك الشيء مرة ثانية، وتوثيقه ذلك باليمين، كما سبق ذكره، وجيء به مضارعا، لما يفيده من استحضار الصورة الماضية كأنها حاضرة مشاهدة، وهذا من شأنه أن يجعل الكلام قوي الإيحاء عميق التأثير.

وعبر عن المفعول باسم الموصول في قوله: "مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ" لما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم، وهو أن ما أحله الله تعالى لعبده ينبغي أن يتمتع به، ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضر أو مرض، لأن تناوله شكر لله واعتراف بنعمته والحاجة إليه(١)، والمقصود به في الآية الكريمة: مارية أو العسل، وفى عدم ذكره والتعبير عنه بالموصول ضرب من الكناية اللطيفة التي تشيع في القرآن الكريم، عند الحديث عما لا فائدة من معرفته، كما أن هذا الأمر من خصوصيات النبيﷺ التي لابد من سترها، تكريمًا لهﷺ(٢).

وعبر في جملة الصلة بالماضي "أَحَلَّ" لأنه يؤكد أن المفعول من المباحات التي يجوز للإنسان التمتع بها في أي وقت دون حرج أو قيد، ولو جيء به مضارعا فقيل: "يحل" لفُهم امتناعُ النبيﷺ عن الحلال كله، وهذا لم يحدث منه، وهو أبعد ما يكون من التفكير في مثله، لما فيه من المجافاة للهﷻ وعدم الاكتراث بما ينعم به على خلقه، وإسناد الفعل إلى اسم الجلالة العلم "أَحَلَّ اللَّهُ" إيماء إلى ضرورة تعظيم المُحلِّلِ جل شأنه، وتقدير ما أنعم بتحليله، وأنه يستحق المزيد من الشكر بالتمتع والأخذ، لا بالحرمان والمنع.

---

(١) نفسه.

(٢) يراجع: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٤/ ٢٧٠ .

وفى التعبير مقابلة بين قوله تعالى "تُحَرِّمُ" وقوله "مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ"، وهى مقابلة معنيين بمعنيين، أضيف إليهما في الطرف الثاني قولُه تعالى "لَكَ" لبيان أن الغرضَ من إباحة الأشياء للخلق الرحمةُ بهم والشفقةُ عليهم، وأن امتناعَهم عن أخذها والتمتع بها يعود أثره عليهم بالدرجة الأولى، وهي مقابلة تؤكد ضرورة الإعراض عن تحريم الحلال وعدم العودة إليه مهما كانت الدوافع والأسباب؛ رحمة بالنبيﷺ وشفقة عليه بصفة خاصة، ورحمة بالناس وشفقة عليهم بصفة عامة.

وقوله "تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ" حالٌ من الضمير في "تُحَرِّمُ"، وهو يوضح السبب الباعث على التحريم أو الامتناع عن الحلال، والتعبير فيه بالفعل "تَبْتَغِي" دون "تبغي" يشير إلى أن الرسولﷺ قد فعل بامتناعه عن الحلال أقصى ما يمكن فعله، وفوق ما تتحمله طاقات البشر، يقول الراغب: "وأما الابتغاء فقد خص بالاجتهاد في الطلب، فمتى كان الطلب لشيء محمود، فالابتغاء فيه محمود"(١)، والتعبير به أيضا يؤكد ما سبق ذكره من أن النبيﷺ لم يفعل ذلك إلا لغرض يراه محمودًا ويرجو من ورائه الصلاح، يقويه التعبير بالمصدر "مَرْضَاتَ" الدال بمعناه وجرسه على الاجتهاد في الإرضاء والإبلاغ فيه.

وجَمَعَ "الأزواج" مع أن الاسترضاء كان لواحدة ليعم ذلك كل أزواجهﷺ، حيث كانﷺ يتعامل معهن جميعا بهذه الدرجة العالية من الأخلاق، وفيه أيضًا ستر لمن حصل منهما ذلك، مما يرشدنا إلى اتباعه والأخذ به عند معالجة المشكلات ووضع الحلول لها، وتعريف الناس بها لاجتنابها.

---

(١) المفردات- مادة بغى.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وفي قوله تعالى "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" تَعَدّدَ المسندُ، وجيء به على صيغة المبالغة لبيان سعة عفو الله تعالى ورحمته، ولإذهاب ما يمكن أن يكون قد علق بنفس النبيﷺ الطاهرة من أثر العتاب، "فالتعقيب به يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة، وأن تتداركه مغفرة الله تعالى ورحمته"(١)، وهو إيحاء لطيف يضارع في لطافته قوله تعالى في سورة التوبة "عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ.." (التوبة ٤٣)، كما أن الإخبار عن اللهﷻ بوصف الرحمة إيماء إلى أن هذا العتاب كان رحمة من الله تعالى بنبيهﷺ وإشفاقا عليه، بسبب ما كان من حرمان لنفسه وتضييق عليها.

*****

وقوله سبحانه "قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ..." بيان لقوله "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"، ومن ثم فصل عنه، فيما يعرف بكمال الاتصال، الذي تقوى فيه صِلاتُ الجمل ببعضها لدرجة لا تحتاج معها إلى واصل لفظي(٢)، ويمكن أن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال الذي تتواصل فيه الجمل "من طريق أن الأولى تتولد منها الثانية، وكأنها أصل ينبثق منه فرع"(٣)، فقد اطّلع المولى عزوجل على ما يدور في نفس رسولهﷺ من تساؤلات، فـ"بيّن... أن

(١) في ظلال القرآن- سيد قطب ٦/٣٦١٥- دار الشروق.

(٢) ومن أوجه حسن هذا الضرب ما أشار إليه الدكتور محمد أبو موسى بقوله "هو في التوكيد تقوية المعاني وتقريرها، وفي البيان تنشيط النفس وإيقاظها، لأنها حين تتلقى كلاما ملفوفا بشيء من الغموض تشتاق إلى بيانه، وتستشرف في التعرف على وجهه، فإذا جاء البيان صادف نفسا يقظة، متطلعة، فيتمكن الكلام منها، وفي المنزل منزلة بدل البعض تفصيل وتنصيص... ولا يخلو الوجهان البدل والبيان من التوكيد، لأن في كل تكريرا للمعنى وتحقيقا، كما أن التوكيد لا يخلو من كشف الفكرة وبيانها، وإنما الذي نبهنا إليه هو أوضح ما في كل" دلالات التراكيب ٣٠٠.

(٣) دلالات التراكيب- د. محمد أبوموسى/ ٣٠٩- مكتبة وهبة.

له سعة في التحلل مما التزم تحريمه على نفسه، وذلك فيما شرع الله من كفارة اليمين، فأفتاه سبحانه أن يأخذ برخصته في الكفارة المشروعة للأمة كلها"[١].

وفى التعبير بالفعل "فَرَضَ" المسبوق بـــ"قَدْ" التي تفيد التحقيق، مع إسناده إلى اسم الجلالة العلم "الله" "تطمين للرسولﷺ وحث له على قبول الرخصة؛ لأن ذلك لا يقدح في الورع، ولا يُخل بحرمة اسم الله تعالى"[٢]، إذ في الكفارة ما يكفى بتعظيم حرمتهﷺ، ويرى ابن عاشور أن الافتتاح بحرف التحقيق "لتنزيل النبيﷺ منزلة من لا يعلم أن الله تعالى فرض تحلة الأيمان بآية الكفارة، بناء على أنه لم يأخذ بالرخصة تعظيمًا للقسم، فأعلمه الله تعالى أن الأخذ بالكفارة لا تقصير عليه فيه"[٣].

ووجه التعبير بضمير الخطاب جمعا مجرورًا باللام "لَكُمْ" تعميم الحكم، وتكريم للرسولﷺ، حيث لم يقتصر الترخيص في الكفارة عليهﷺ وحده، وإنما امتد ليشمل أمته كلها، وفى تقديم الجار والمجرور على المفعول "تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ" تقويةٌ للحكم، وإشعار بالرعاية والاطلاع على ما يحتاج إليه رسلُه وخلقُه لصلاح أحوالهم، بجانب ما فيه من عفوية التناغم وتجانس الإيقاع.

و"تَحِلَّةَ" مصدر من حلل، كتكرمة من كرم، وليس مصدرًا مقيسًا، والمقيس: التحليل والتكريم... وأصله تحللة فأدغم[٤]، وأصل الحل: حل العُقَد، ومنه قوله تعالى: "وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي" (طه ٢٧)، ومنه استعير

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٤٧.
(٢) نظم الدرر ٨/ ٤٥.
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٤٧.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٩٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

قولهم: حل الشئ حِلا، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً" (البقرة ١٦٨)، وقال أيضا: "وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً" (المائدة ٨٨)، والمقصود بقوله "تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ" كفارة اليمين، وعبر عنه بـــ "تَحِلَّةَ" للإشارة إلى أن في الكفارة حلا لما تعقّد وصار صعبا باليمين أو ما يجرى مجراه، وأن الشئ الذي حُرّم (منع) باليمين صار بعد الكفارة حلالا "مباحا".

وأوثر التعبير بـــ"تَحِلَّةَ" دون غيره لما في جرسه من قوة تناسب تعبير القرآن بالفعل "فَرَضَ"، بجانب ما يشعر به من انطلاق بعد قيد، وانفكاك بعد حبس، مما يغرى بالأخذ به والعودة إلى سابق الحال وماضي العهد قبل وقوع اليمين، وفى جمع الأيمان "أَيْمَانِكُمْ" تعميم للحكم، حتى لا يفهم أنه خاص بالسبب الذي نزل من أجله، فإذا كان الله تعالى قد فرض ذلك لجميع أفراد الأمة تيسيرًا عليهم، فرسول اللهﷺ أولى بأن يجعل له ذلك(١).

---

(١) – يرى فريق من العلماء أن النبيﷺ لم يصدر عنه في تلك الحادثة إلا أنه التزم ألا يعود لشـــرب العسل، أو وعد بتحريم مارية على نفسه دون يمين، وأمرُ الله تعالى له بالكفارة دليل علـــى أن ذلـــك يجرى مجرى اليمين. ينظر: نظم الدرر ٤٥/٨، البيضاوي بحاشية الشهاب ٣١٠/٨، التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٨.

–ويرى فريق ثان صدور اليمين من الرسولﷺ. ينظر: الكشاف ٥٦٥/٤، القرطبي٦٦٦٣/١٠، في ظلال القرآن ٣٦١٥/٦.

–ووقف الألوسي موقفا وسطا فقال: لا يلزم من وجوب الكفارة كونه يمينا؛ لجواز اشـــتراك الأمـــرين المتغايرين في حكم واحد، فيجوز أن تثبت الكفارة فيه لمعنى آخر، ولو سلم أن هذه الكفارة لا تكـــون إلا مع اليمين، فيجوز أن يكونﷺ أقسم مع التحريم، فقال في مارية: "والله لا أطؤها" أوفى العسل "والله لا أشربه"، وقد رواه بعضهم، فالكفارة لذلك اليمين لا للتحـــريم وحـــده، والله أعلـــم. روح المعـــاني ١٤٩/٢٨.

–ويبدو لي أن الرأي الثاني أكثر توافقا مع ظاهر الآيات، كما أنه المناسب لتعبير القرآن بالفعل "تبتغى" والمصدر "مرضات" اللذين يكشفان عن حرصه الشديد على استقامة العشرة وصلاح الأحـــوال، كمـــا سبق بيانه.

وقوله: "وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ" جملة حالية، جاءت تذييلا[١] لقوله: "قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ"، ومن ثم فهي تؤكد ضرورة التخلي عما يسبب للنفس إرهاقا وعنتا، والأخذ بما رخص الله عز وجل فيه.

وإذا كان الإمام عبد القاهر يرى أن الأصل في جملة الحال أن تجئ بالواو إذا كانت من مبتدأ وخبر، وأن الغرض من الإتيان بالواو فيها: التنبيه إلى "أن المعنى على أنك استأنفت كلاما وابتدأت إثباتاً"[٢]، فوجه مجيء الواو في هذا السياق: التنبيه إلى أن هذا حال الله عز وجل مع النبيﷺ وأمته، فهو "مَوْلاكُمْ" أي: سيدكم ومتولي أموركم[٣]، ومادة "ولى" تدل على القرب[٤]، مما يشير إلى أن الله تعالى يفعل معهم فعل القريب، الذي يعلم ضعفهم ويرى ما يشق عليهم، ومن ثم فرض عليهم تحلة الأيمان، ووضعُ اسم الجلالة العلم "الله" موضع ضميره في الجملة لقصد تعظيمه والامتثال لأمره، والإقرار بنعمته وفضله.

والضمير في جملة "وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" يعود إلى المسند إليه في الجملتين السابقتين، وهو "الله" جل جلاله، والمعنى: أن الذي فرض لكم تحلة الأيمان، والمخبر عنه بأنه "مَوْلاكُم" هو "الْعَلِيمُ" أي الذي يعلم ما يصلح خلقه فيشرعه لهم[٥] "الحَكِيمُ" أي: الذي يضع لكل شيء ما يناسبه، ولا يشرع إلا

---

(١) التذييل: تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد. الإيضاح بشرح الشيخ عبدالمتعال الصعيدي ٢/ ١٢٢.

(٢) دلائل الإعجاز ٢٢١.

(٣) الكشاف ٥٦٥/٤.

(٤) مقاييس اللغة- أحمد بن فارس- تحقيق عبدالسلام هارون- مادة ولى- دار الفكر.

(٥) الكشاف ٥٦٥/٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

عن حكمة[١]، وإيثار صفتي العلم والحكمة لإسنادهما إلى ضمير الحق عزوجل عن طريق قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا يؤكد ما تدعو إليه الآيات من ضرورة تخفيف النبيﷺ عن نفسه، وعدم الإصرار على فعل ما يرهقها، والأخذ بما رَخّص الله تعالى وشَرَعه من أجل عباده، وفيه أيضا- على ما يبدو لي - إيماء إلى أن للهﷻ حكمة جليلة من وراء هذه الأحداث التي وقعت في بيت النبوة، وكان الرسولﷺ طرفًا فيها، مما دعا إلى مجيء العتاب على هذا النسق من التلطف والإشفاق.

*****

وفي قوله تعالى:"وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا..." بيان للحادثة التي وقعت في بيت النبوة، وكان النبيﷺ واحدا من أطرافها، ذكرها النظم الحكيم تعميما للفائدة، وترسيخا للعبرة، وليوضح من خلالها بعض الصفات النادرة والسمات الفريدة للزوج الكريم، سيدنا محمدﷺ، وجديرٌ بالذكر أن النتائج التي ترتبت عليها قد ألقت بظلالها على بيوت الرسولﷺ كلها، بل ألقت بظلالها على المجتمع المسلم كله، إذ أشيع أن النبيﷺ طلق كل نسائه، لمّا رأى الصحابة أنهﷺ قد اعتزلهن شهرًا كاملًا، مما يجعل بيانها ضرورة كاشفة ومهيئة لتلقي ما ترتب عليها من توجيه وبيان.

والواو في أوله استئنافية جيء بها للتنبيه إلى ما في القصة من دروس وعبر تنفع الأسرة بخاصة والمسلمين بعامة، و"إِذْ" ظرف يعود بنا إلى زمن النبيﷺ، وبالتحديد إلى الوقت الذي وقعت فيه هذه الأحداث، لنستحضر المشهد، ونعايش الوقائع، ومن ثم يكون التأثير أعمق والاستفادة أتم وأكمل.

---

(١) نظم الدرر ٨/٤٥ بتصرف.

و"أَسَرَّ" فعل مشتق من السر، والهمزة فيه للجعل، أي: جعله سرا، يقال: أسرّ في نفسه، إذا كتم سره، ويقال: أسرّ إليه، إذا حدثه بسر فكأنه أنهاه إليه(١)، والتعبير به يدل على أن النبيﷺ ما جعل كلامه سرا وأوصى بكتمانه إلا لأن المصلحة تقتضيه، ولو لم يكن في جعله سرا صلاحٌ يراه وهدفٌ يقصده لأذاعه الرسولﷺ وأفشاه، وإسناده إلى الرسولﷺ بوصف النبوة "وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ" يفهم منه أن كونهﷺ نبيا لا ينفي كونه بشرا أو إنسانا، "إذ لا حاجة إلى نفي هذه العناصر الإنسانية عن حياتهﷺ... فقد اختير ليكون إنسانا، ولكن إنسانا رفيعا، وهكذا كانﷺ"(٢).

والمراد بـــ "بَعْضِ أَزْوَاجِهِ": السيدة حفصة رضي الله عنها، وأوثرت هنا الكناية على التصريح، لما فيها من الستر اللائق بأمهات المؤمنين، ولأن منهج القرآن ينحو دائما نحو ما يبين المعنى المراد دون التفصيلات المتسمة بالفضول(٣)، كما أن إبهام الزوجة وعدم ذكرها تشريف للنبيﷺ وصيانة، وتكريم لها كذلك، لأن حرمة نسائه من حرمتهﷺ(٤)، وإضافة "أَزْوَاجِ" إلى ضميره ﷺ يومئ إلى أن رسول اللهﷺ قد وضع سره في موضعه، لأن أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجه، إذ هي الأقرب إليه والملتصقة به، وفيه تعريض ولوم على إفشائها سره، لأن واجب الزوجة أن تحفظ سر زوجها إذا أمرها بحفظه، أو كان مما ينبغي كتمانه وعدم الإفصاح به.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٥١ وما بعدها.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١١.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٤/ ٢٦٩.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٨/ ٤٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وجاء المفعول "حَدِيثًا" منكرا، لأنه خاص بالرسولﷺ، وليس شأنا من شؤون الدعوة أو الرسالة، ولو كان كذلك لتم إعلانه، كما أن في تنكيره وعدم تفصيله ضربا من ضروب التكريم لرسول اللهﷺ بحفظ سره، "أما إطلاعنا عليه بعد ذلك فإنه لنتأسى بما فيه من أحكام، فإن أحوالهﷺ كلها أحكام لنا إلا ما اختص به"(١)، وفي تأخيره عن الجار والمجرور إلماح إلى أن العلم به ليس من الأهمية بمكان، وأن الكلام ليس مسوقا لبيان الحادثة وتفصيلها، بقدر ما هو مسوق لنشر العبرة وتعميم الفائدة.

وقوله: "فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ..." جملة شرطية عُطفت على جملة "وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ" بالفاء التي للتعقيب، للإلماح إلى إسراع مَنْ حصل الإسرار إليها في إذاعة الحديث وإفشائه، وجيء بفعل الشرط "نَبَّأَتْ" مضعفا لبيان أنها بالغت في نقل السر بجميع تفاصيله، ولم تُخف أي شيء منه عن صاحبتها، وأوثر التعبير به دون "أخبرت" للإلماح إلى اعتقادها أن ما حدّثت به من سرّ رسول اللهﷺ أمرٌ عظيم الشأن، ذو أهمية كبيرة لها ولمن نقلته إليها، فـ "النبأ" هو: الخبر ذو الفائدة العظيمة، الذي يحصل به علم أو غلبة ظن، كما سبق بيانه، وحُذِف المفعول، وتقديره: "صاحبتها"، أو "غيرها"، لكونه مفهوما، ولما سبق قوله من أن الغرض من ذكر الحادثة إنما هو نشر العبرة وتعميم الفائدة، دون الخوض في التفاصيل التي لا داعي لها.

ولا يخفى ما للمقابلة بين جملتي "أَسَرَّ النَّبِيُّ" و "نَبَّأَتْ" من أثر في إبراز حرص الرسول الشديد على كتمان السر وعدم إذاعته، وإيضاح ما كان ممن أسر إليها من تهاون في حفظه، وتساهل في إذاعته، وهي مقابلة من

(١) السابق.

شأنها أن تزيد من إثارة المتلقي، وتشحذ من عزيمته، وترغبه في حفظ أسرار الناس بصفة عامة، وأسرار الأقربين بصفة خاصة.

وقوله "وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ" معناه: أطلعه الله عليه، و"ظهر" مشتق من الظهور بمعنى: الغَلَب، وفي التعبير به استعارة تصريحية، شُبه فيها الإطْلاعُ بالإظهار بمعنى: الغلب، لأن "إطْلاع الله تعالى نبيهﷺ على السر الذي كان بين حفصة وعائشة- رضي الله عنهما- كان غلبةً له عليهما فيما دبرتاه"(١)، وفي إسناده إلى اسم الجلالة العلم تنبيه- لهما ولغيرهما- إلى عناية الله تعالى برسولهﷺ واهتمامه لأمره، لأن إعلامه بما لا علم له مما يهمه فيه من العناية والاهتمام ما لا يحتاج إلى بيان، وفي عطفه على جملة "تَبَّأَتْ" بالواو التي تفيد المصاحبة إيماء إلى أن الإظهار كان مصاحبا لعملية إفشاءِ السر والإخبارِ به، مما يؤكد العناية والاهتمام ويومئ إلى إحاطتهﷺ بكل ما يُدَبَّرُ ضده، أيًا كان من يدبره.

وجواب الشرط قوله "عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ"، وفيه طابق بين الفعلين "عَرَّفَ" و "أَعْرَضَ" لإبراز عظم أخلاق النبيﷺ، ورقة مشاعره، ورفقه بأزواجه، حيث اكتفى حين راجعها فيما أخبرت به بالإشارة إلى جانب منه، ترفعا عن السرد الطويل، وتجنبا للدخول في التفاصيل، يضاف إليه "أن الكف عن بعض العتب أبعث على حياء المُعاتَب، وأعون على توبته، وعدم عوده إلى مثل فعله"(٢).

وأوثر الأسلوب الشرطي لبيان ما كان من النبيﷺ بعدما علم بإفشاء سره لما يمتاز به من الإيضاح الوافي، بجانب ما فيه من إثارة المتلقي

(١) يراجع: التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٥٣.
(٢) نظم الدرر ٨/ ٤٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وتشويقه إلى ترقب جملة الجزاء، فإذا وردت ثبت في نفسه، وترسخ في عقله تلك الأخلاق الرفيعة، وذلك التعامل الراقي، وهذا الصفح الجميل من رسول اللهﷺ، والذي ينبغي أن يسود الحياة الأسرية، ويجب أن يقابل بمثله من بقية أطرافها.

وجيء بالشرطية "فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ..." معطوفة على الشرطية السابقة عليها بالفاء التي تفيد إلى جانب التعقيب معنى التسبب، لأن إخبارها بما دار بينهما مسبب عن إفشائها سرهﷺ، وإنبائها خبره، وعبر بالإنباء دون الإخبار، لأنه ليس إخبارا عاديا، إنما هو إخبار عظيم في حقيقته وفي دلالاته، وأسند إلى ضمير النبيﷺ، لأنه هو الذي قام به، "وإنما نبأها النبيﷺ بأنه علم بإفشائها الحديث، ليبني عليه الموعظة والتأديب، فإن الله تعالى ما أطلعه على إفشائها إلا لغرض جليل"(١).

وجواب الشرط قوله "قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا"، وفيه خُفِّفَ فعلُ الإنباء، لأنها كانت تظن أنه مجرد إعلام لا يترتب عليه شيء، والاستفهام فيه يمكن أن يكون على حقيقته، بمعنى: أنها تريد أن تتحقق من المصدر الذي علم منه رسول اللهﷺ ما حدث منها، ويمكن أن يكون غرضه التعجب والاندهاش، لأنها تستبعد أن تكون عائشة قد أخبرته بما حدثتها به، لأنها تثق بها، ولأنهما تعاهدتا على الكتمان.

وجيء بقوله "قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ" مفصولا عما قبله لشبه كمال الاتصال، الذي يستعمل عندما يراد تفاعل المتلقي مع الأحداث، لجدارتها بالمتابعة والاهتمام، وعظم ما فيها من دروس ومعان، يقصد النظم الحكيم

(١) التحرير والتنوير ٣٥١/٢٨.

إلى ترسيخها في قلوب المتلقين بعامة والمخاطبين بخاصة،ومن المواضع التي يكثر فيها ما يذكر فيه الفعل "قال" مفصولا عما قبله، يقول الإمام "واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف، هذا هو التقدير فيه"(١).

وأوثر تضعيف فعل الإنباء، قصدا إلى تأكيد ما أخبره به الحق سبحانه وتعالى وتحقيقه، يقول الراغب "ولم يقل "أنبأني" وعدل إلى "نَبَّأَ" الذي هو أبلغ، تنبيها على تحقيقه وكونه من قبل الله عزوجل"(٢)،وحذف متعلقه للإشارة إلى أن الله تعالى أطلعه على جميع ما دار بينها وبين عائشة مما عرفها به ومن غيره على أتم ما كان وأكمله، ففي الحذف اختصار للفظ وتكثير للمعنى.

وفي إسناد فعل الإنباء إلى "الْعَلِيم الْخَبِير" دون غيرهما من أسماء الحق سبحانه وتعالى إشارة مؤثرة في حالة التظاهر والمكايدات المحبوكة من وراء الأستار، وهي إشارة ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التي ربما نسيتها أو غفلت عنها، وترد القلوب بصفة عامة إلى تلك الحقيقة كلما قرأت القرآن(٣)، إذ التعبير بهما هنا كاف لإثارة الخوف في القلوب، وداع لهما بصفة خاصة إلى التحلي بمراقبة "الْعَلِيم الْخَبِير"- الذي يعلم ظاهر الأمر وباطنه- في علاقتهما برسول اللهﷺ، وداع جميع الناس- بما فيهم طرفا كل أسرة وركناها- إلى التحلي بمراقبة "الْعَلِيم الْخَبِير" في علاقتهم ببعضهم.

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٤٠.

(٢) المفردات- مادة نبأ.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المعقد الثاني

من أسرار الترغيب في التوبة والتهديد بالطلاق

"إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ. عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا"(التحريم ٤-٥).

علاقة الآيتين بالسياق:

يُعَدُّ العتابُ الذي ورد في مطلع السورة الكريمة، وبيانُ الحادث الذي كان سببا فيه، تهيئةً وتمهيدًا لما جاء في بقيتها من توجيه إلى ضرورة توقير النبيﷺ وتقدير المهام التي كلفه الله تعالى بها، وعدم صرفه عن القيام لها وبها بأي صارف، وكانت البداية بمن كانتا وراء تدبير ذلك الحادث، وتسببتا في شغل الرسولﷺ والمؤمنين به، ليفهما ويفهم غيرُهما من أزواجه بخاصة، والمؤمنين بعامة: من هو الرسولﷺ؟ وكيف يكون التعامل معه؟

مزايا النظم وأسراره:

اعتمد هذا المعقد من السورة الكريمة في النصح والتوجيه أسلوبي الترغيب و الترهيب، وبدأ بالترغيب على عادة الذكر الحكيم في تقديم ما يقرب النفوس ويهييء القلوب لقبول الإرشاد، وحُسن تلقّي التوجيه، فرغّبهما في التوبة، وبشّرهما بقبولها إن هما فعلتا، وهددهما وهدد من تنهج نهجهما بالطلاق مع الوعد بمؤازرة الرسولﷺ ومساندته إن هما رغبتا عن التوبة إلى الاستمرار في التظاهر والمكايدات، "فالشمائلُ الجميلةُ

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الحلوةُ لصاحب الرسالة، لا يسوغ أن تكون سببا في إزعاجه وإتعابه، وبيتُ النبوة ليس مسرحا للغيرة والتحاسد، إنما هو صومعة عبادة، ومجال إقبال على الآخرة وتفان في مرضاة الله ﷻ، ولعل ما اشتملت عليه السورة الكريمة تلويحٌ شديد القسوة لمن شاركن في إغضاب الرسولﷺ وأثرن الحزن في نفسه"(١).

وبدأ هذا الجزء بتوجيه الخطاب إليهما "إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما..." بعد أن كان النظم الحكيم يتحدث عنهما بطريق الغيبة "بَعْضِ أَزْوَاجِهِ" فيما يعرف بأسلوب الالتفات، الذي يُرى معه الكلامُ كأنه حيٌّ يتلفت، بسبب عدم جريانه على نسق واحد، بجانب ما يمتاز به من تحريك العقول، وإثارة الأذهان نحو تعرف أسباب الالتفات وأسراره، ومن ثم كان أحد مظاهر"شجاعة العربية"(٢)، يقول الزمخشري "فإن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن؛ تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على نسق واحد"(٣)، وفي انتقال النظم الحكيم من التعبير عنهما

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم- محمد الغزالي ٤٦٩- الطبعة الأولى- دار الشروق.

(٢) يوضح ابن الأثير وجه تسميته بهذا الاسم في قوله "وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات" المثل السائر ١٣٢/٢، ومع سبق ابن الأثير بهذا البيان إلا أنني أتفق مع الدكتور محمد أبو موسى في قوله: "وتفسير الشجاعة هنا بإقدام اللغة العربية على طريق من التعبير لم تقدم عليه غيرها من اللغات فيه شيء من المجازفة، لأن هذه الخصوصية تصف حالة أو شعورا إنسانيا عاما، والقول بأن المتكلمين بغير العربية لم يجدوا في نفوسهم هذه الحالة... قول بعيد، والذي أراه: أن الشجاعة هنا إقدام على أنماط من التعبير مخالفة لما يقتضيه الأصل... والمعتمد عليه في ذلك سياق الكلام وشفافية الدلالة، وهذا إن تأملته ضرب من الشجاعة واقتحام سبيل غير السبيل المألوف". خصائص التراكيب ٢٥٠.

(٣) الكشاف ١/ ١٤.

بطريق الغيبة إلى الموعظة المباشرة عن طريق أسلوب الخطاب من الأسرار البلاغية ما يلي:

أولا- المبالغة في العتاب، لأن من يُعاتِب يتحاشى مواجهة المُعَاتَب أولا، حتى لا ينفر منه، فإذا قبل منه وبدت عليه أمارات الاستجابة توجه إليه بالحديث المباشر وعاتبه بما يريد.

ثانيا- الإبلاغ في الموعظة، مع رجاء الانتفاع بها، ببيان أن ما قامتا به من التظاهر وإفشاء سر الرسولﷺ وإلهائه عن مهامه إثم يستوجب التوبة، حتى لا تفكرا أو يفكر غيرهما في القيام بمثله مرة أخرى.

ثالثا- يرى البقاعي أن في الالتفات إليهما ضربا من التشريف لرسول اللهﷺ، "بالإقبال على نسائه بالعتاب لأجله، قياما عنهﷺ بما ربما أزعجه لو باشره، حفظا لخاطره الشريف مما قد يغيره"(١).

والفعل "صَغَتْ" يعني: مالت، يقال"صَغَى إليه يُصْغِي صَغْوًا وصُغُوّا وصَغًا: مال... قال تعالى"وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ"(الأنعام ١١٣)، أي: لتميل"(٢)، والمعنى: مالت إلى الخير والصواب واعترفت بحق معاشرة الزوج، وفي التعبير به إيماء إلى أن ما فعلتاه يعد انحرافا وميلا عن أدب المعاشرة الذي أمر به المولى سبحانه وتعالى، وأن عليهما أن تتوبا منه وأن تندما عليه، ليتم بذلك صلاح ما فسد من قلبيهما، ومجيئُه مسبوقا بحرف التحقيق يطمئن المخاطبتين إلى قبول توبتهما، متى تمت وتحققت شروطها.

---

(١) نظم الدرر ٤٧/٨.

(٢) لسان العرب- مادة صغى.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومجيء "القلوب" فاعلا له يمكن أن يكون من باب الحقيقة، ويمكن أن يكون من قبيل الاستعارة المكنية، التي شُبه فيها القلب بإنسان يوازن بين الأمور، فيميل إلى ما فيه الخير والصلاح، ويبتعد عما فيه الشر والفساد، وكلا الاحتمالين يبرز ما للقلب من تأثير عظيم على كل أعضاء البدن، وأنه المتحكم في أفعال البشر، لقول النبي ﷺ "...أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ"(١).

وفي العدول(٢) عن تثنية الفاعل إلى جمعه "قُلُوبُكُمَا" نوع من تعظيم القلب الذي تاب وأناب ومال إلى الحق وتجنب الباطل، وإلماح إلى اختلافه عن القلوب التي لم يحصل منها ذلك، بجانب ما أشار إليه البقاعي بقوله: "وفي جمع "القلوب" جمع كثرة تأكيد... لميل القلب بكثرة المعارف وبما أفاده العتاب من الحياء، فصارتا جديرتين بالمبادرة إلى التوبة متأهلتين لها غاية التأهل"(٣).

---

(١) صحيح البخاري/ كتاب بدء الوحي- برقم ٥٢- الطبعة الأولى ١٤٠٧ه/١٩٨٧م- دار الشعب- القاهرة، وصحيح مسلم/ باب أخذ الحلال وترك الشبهات- برقم ٤١٧٨- دار الجيل- بيروت.

(٢) العدول مصطلح بلاغي تناوله بعض البلاغيين ضمن أسلوب الالتفات، وعدوه صورة من صوره. ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد٢/١٣٢- المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت، والطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي، راجعه وضبطه: محمد شاهين ٢٥٦- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٥هـ . بينما أدخله جمهور البلاغيين ضمن صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

- ويبدو لي أن عد هذا الأسلوب من هذا أو ذاك مسألة اصطلاحية لا يترتب عليها كبير أثر، "وإنما الأثر في تفقد روابط الكلام وأحواله وصيغة، واستخراج ما في ذلك كله من رقائق المعاني ولطائف الإشارات". خصائص التراكيب ٢٦٢.

(٣) نظم الدرر ٨/ /٤٨.

وفي التعبير بـــ "إنْ" أداة للشرط نوع من الإثارة والتهييج والحث على الإسراع بالتوبة، يؤيده ويقويه تقديم الترغيب فيها على التحذير من العدول عنها إلى التظاهر والمكايدات، بجانب ما فيه إقامة المخاطب بين الخوف والرجاء، ليستمر على توبته، ويبتعد عن كل ما يتناقض معها، فلا يعود إلى ما كان منه ولا إلى غيره مرة أخرى.

*****

وبعد الترغيب في التوبة وما يترتب عليها من استقامة وحسن معاشرة، اتجه النظم الحكيم إلى بيان عاقبة الإعراض عنها، والتمسك بالتظاهر والمكايدات "وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ..."، في أسلوب تقابلي يكثر استخدامه في مثل هذا المقام، ليتعمق الإحساس بالأشياء، وتزداد النفوس بصرا بالحقائق، لأن من سماته أن يظهر حسن الحسن ويعظم بإزائه قبح القبيح، ويلحظ في تعبير القرآن عن الطرف الثاني من طرفي المقابلة ما يلي:

أولًا- التماثل بينه وبين الطرف الأول في اعتماد النظم الحكيم على أسلوب الشرط، لبيان ما يترتب على كلا الفعلين المتقابلين (التوبة- التظاهر)، وذلك لما سبق بيانه من كونه يمتاز بخاصية الإبانة والإيضاح مع التشويق والإثارة، لأنه يتركب من جملتين، تعد أولاهما سببا في الثانية وطريقا إليها.

ثانيًا- التعبير بـــ "إنْ" المفيدة للشك أداةً للشرط، للإشارة إلى استبعاد ميل المخاطبتين إلى التظاهر والعود إليه، بعد الترغيب في التوبة والإثارة إليها، مع الوعد بقبولها، والمثوبة عليها بمحو الذنب وغفرانه.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثالثًا- استعارة فعل التظاهر"تَظَاهَرَا" للمعاونة والمساندة، للدلالة على قوة المساعدة وشدتها، ولتصوير كيفية حصولها، إذ الظهر أقوى عضو في الجسم، والمعين أو المساعد كأنه يشد بظهره ظهر من يعينه ويعاونه، "وأصله "تتظاهرا"، قلبت التاء ظاء لقرب مخرجيهما، وأدغمت في ظاء الكلمة، على قراءة الجمهور، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي "تظاهرا" بتخفيف الظاء بناء على حذف إحدى التاءين"(١)، وقراءة الإدغام ترمز إلى الخفاء الذي يتم فيه الاتفاق والتعاون ضد النبيﷺ، كما أنها ترسم لنا صورة الظهرين وقد التصقا ببعضهما كأنهما ظهر واحد، أما قراءة التخفيف فإنها توميء إلى تهوين الأثر المترتب على تلك المظاهرة وإن تعدد أفرادها.

رابعًا- تعدية فعل التظاهر إلى ضمير الرسول ﷺ بحرف الجر المفيد للاستعلاء والتمكن "عَلَيْهِ"، للإلماح إلى أن أثر هذه المظاهرات وتلك المكايدات يستولي على رسول اللهﷺ ويتمكن منه، بسبب رقة قلبه ورهافة حسه، كما أنه يشغل قدرا كبيرا من وقته، وقد يحرم نفسه ويضيق عليها من أجل إنهائها وتطييب خاطر من يقوم بها، ومن ثم كانت مظاهرته ومساندته على قدر ما يتأثر به، لا على قدر من يتظاهر عليه.

خامسًا- حذف جملة جواب الشرط، والمجيء بجملة "فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ..." لتقوم مقامها، إذ التقدير: وإن تظاهرا عليه يتول الله جزاءكما على ذلك التظاهر، لأن الله هو مولاه...، وفي هذا الحذف نوع من التهويل الذي يدفع النفس إلى أن تذهب فيه كل مذهب، وتتوقع معه أي شيء، وبه يتحقق المقصود من البيان.

(١) يراجع: البحر المحيط ٨/ ٢٨٦، روح المعاني ٢٨/ ٤٦٤.

والفاء التي في صدرها تدل على أن ما بعدها مسببٌ عما قبلها ومترتب عليه، وهي تشير إلى أن المولى سبحانه وتعالى لن يرضى من أحد- مهما كان- أن يتظاهر على رسوله ﷺ، ولن يتركه يفعل ذلك أو يخطط له، والتأكيد بـــ "إنّ" والجملة الاسمية فيه تنزيل للمتظاهرين منزلة المنكرين لمضمون الكلام، لأن تظاهرهم علامة تدل على ذلك، وفيه من التخويف ما لا يخفى.

وفي التعبير باسم الجلالة العلم "الله" تربية للمهابة، وزيادة في الترهيب من الإقدام على التظاهر أو التفكير فيه، وأسند إليه "مَوْلاهُ" المضاف إلى الضمير العائد إلى الرسولﷺ بصيغة الغائب للإشعار برعاية الله تعالى لنبيهﷺ وحفظه من كل ما يحاك ضده في غيبته ومن وراء ظهره، لأن مادته تدل على القرب منه، والقيام عنه بجميع الأمور(١)، يقويه توسيط ضمير الفصل "هُوَ" بين ركني الجملة، وهو من أساليب القصر التي تفيد تأكيد المعنى وتثبيته في ذهن المتلقي بطريقين: أولهما- إعلام المخاطبتين وغيرهما بانتفاء ولاية غير الله تعالى للنبيﷺ، والآخر- إثباتها لله سبحانه وتعالى مع التعبير باسم الجلالة العلم، للتيئيس من التظاهر، والدعوة إلى الاستقامة وإحسان العشرة.

سادسًا- المجيء بقوله "وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ" لإحداث نوع من الإفزاع والترهيب من التظاهر والمكايدة للمخاطبتين وغيرهما، وللتيئيس من ترتب أية نتائج على أي فعل منهما، لأن هؤلاء جميعا سيظاهرون رسول اللهﷺ، ويكونون معه ضد من يكيد له، وهذا من شأنه أن يمنع حصول ذلك ويحول دون التفكير فيه.

---

(١) المفردات- مادة ولي.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

و"جِبْرِيلُ" مبتدأ خبره "ظَهِيرٌ"، وبدأ به لشرفه عند ربه ومكانته بين الملائكة، ولأنه معروف لدى أمهات المؤمنين لنزوله المتكرر بالوحي إلى النبيﷺ، واختلف في المراد بـــ "صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ"، فقيل: كل من آمن وعمل صالحا، وقيل: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وخصا بالذكر لأنهما والدا المخاطبتين(١)، وعندي أن الرأي الأول أولى بالقبول، لأن فيه من الإفزاع والتخويف ما يناسب سياق الآية ومقصودها، ولدخول أبي بكر وعمر فيه دخولا أوليا، فيتحقق بدخولهما مع غيرهما الأثر الشديد في قلوب بنتيهما، ويزداد أمرهما توهينا وضعفا، واقتصر النظم الحكيم على الصالحين من المؤمنين لما يلي:

أ- أن مظاهرتهم لرسول اللهﷺ وحرصهم على نصرته ضد من يكيد له أمر مؤكد لا شك فيه.

ب-أن غلبتهﷺ بهم أمر أكثر تأكيدا من غلبته إذا ناصره المؤمنون بما فيهم غير الصالحين.

ت-يقول ابن عاشور"والتقيد بالصالح من المؤمنين فيه ضرب من التعريض بالمخاطبتين بأنهما تكونان- على تقدير وقوع الشرط- من غير الصالحين"(٢).

هذا من وجه، ومن وجه آخر فإن عطف "صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ"على "جِبْرِيلُ" فيه إلماح إلى أن الله سبحانه وتعالى جمع لنبيهﷺ في مواجهة أية مكيدة بين الظهير الجلي (المشاهد) والظهير الخفي (غير المشاهد)، مما يعني أنهﷺ منصور ضد من يكيد له بما يُتصور وما لا يُتصور.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٨٦، روح المعاني ٢٨/ ٤٦٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٥٨.

وجيء بـ "الْمَلَائِكَةَ" بعد "صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ"، لبيان أن نصرتهﷺ لا تقتصر على أهل الأرض ، وأنها تمتد لتشمل أهل السماء، على تكاثر عددهم وامتلاء السماوات من جموعهم، وقوله "بَعْدَ ذَلِكَ" معناه: بجانب ذلك، أو مع ذلك، فالبعدية هنا بعدية في الذكر فقط، والتعبير به يهدف إلى تعظيم الملائكة وتفخيم مظاهرتهم، يقول الألوسي: "وفائدة "بَعْدَ ذَلِكَ" التنبيه إلى أن نصرة الملائكة- عليهم السلام- أقوى وجوه نصرته عزوجل، وإن تنوعت، إذ لا خفاء في أن نصرة جميع الملائكة- وفيهم جبريل- أقوى من نصرة جبريل وحده"(١)، وفيه من التيئيس والإفزاع ما يتوافق مع غرض الآية ومقصودها.

واستعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد "ذَلِكَ" فيه إلماح إلى ارتفاع شأن المشار إليه- وهو جبريل وصالح المؤمنين- وعلو منزلته، والسر في ذلك- على ما يظهر لي- الدعوة إلى التفكر في مظاهري الرسولﷺ ومناصريه، وتَخَيُّلِ قدراتهم الفردية والجماعية، قبل الإقدام على شيء من التظاهر والمكايدات ضده ﷺ.

و"ظَهِيرٌ" خبر عن "جِبْرِيلُ" كما سبق قوله(٢)، وأفرد للإشارة إلى أن

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ٤٦٦.

(٢) ما ذكرته من أن "ظهير" خبر لـ "جبريل" هو ما أميل إليه، وقد سلكت به مسلك أبي حيان التوحيدي، إذ يقول "والأحسن الوقوف على "مولاه"، ويكون "جبريل" مبتدأ وما بعده معطوف عليه، والخبر "ظهير"، فيكون ابتداء الجملة بـ "جبريل" وهو أمين وحي الله تعالى، واختتامه بـ "الملائكة"، وبدئ بـ "جبريل" وأفرد بالذكر تعظيما له وإظهارا لمكانته عند الله، ويكون قد ذكر مرتين، مرة بالنص ومرة بالعموم، فعلى هذا "جبريل" داخل في المظاهرة لا في الولاية.

- وهناك من جوز أن يكون "جِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ" عطفا على اسم الجلالة، فيدخلان في الولاية، ويكون "الملائكة" مبتدأ خبره "ظهير" وعليه يكون "جبريل" داخل في الولاية بالنص، وفي المظاهرة بالعموم. البحر المحيط ٨/ ٢٨٦ وما بعدها.

- وهناك من جوز أن يكون الوقف على "جبريل" ويكون "صالح المؤمنين" مبتدأ، وما بعده معطوف عليه. ينظر: روح المعاني ٢٨/ ٤٦٥.

- والذي يبدو لي أن ما ذهبت إليه- متفقا فيه مع العلامة أبي حيان- هو الأنسب للآية، والأوفى بحق الله تعالى وقدره، جل جلاله، والأوفى كذلك بحق جبريل والملائكة وصالح المؤمنين، والله تعالى أعلى وأعلم.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الجميع يكونون في مظاهرة الرسولﷺ كأنهم يد واحدة، وظهر واحد، وبينه وبين "تَظَاهَرَا" جناس ناقص يدل على أن الجزاء من جنس العمل، ويشير كذلك إلى أن تظاهرهم- مهما بلغ- لن يعادل مظاهرة الملائكة وجبريل وصالح المؤمنين مع الرسول الكريمﷺ.

ومن الملحوظات البلاغية التي يجب تسجيلها حول الأسلوب القرآني في هذه الآية ما يلي:

أولا- أن النظم الحكيم لم يذكر المُعَان عليه، أو المُظَاهَر ضده، فلم يقل: ظهير له عليكما، والغرض من ذلك أن يكون الوعد بالمظاهرة عاما، يشمل تظاهرهما وتظاهر غيرهما، كما أن التعميم فيه ضرب من تكريم الرسولﷺ ورعاية خاطره، بعدم الشدة على زوجتيه، وتوجيه الحديث المباشر إليهما.

ثانيا- أن الحديث عن مظاهرة جبريل والملائكة وصالح المؤمنين بعد بيان موالاة الله تعالى لنبيهﷺ- مع كفايتها- يقصد منه المبالغة في توهين أمر تظاهرهما، ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من تأثيره أو ضرره في أمر النبوة والتبليغ وقهر أعداء الدين، حيث "إن العادة قاضية باشتغال بال الرجل بسبب تظاهر أزواجه عليه"(١).

ثالثا- أن السر في توهين كيدهما وإعظام النصرة للرسولﷺ عليهما هو غيظ الكافرين والمنافقين وحسم أطماعهم المتكررة في شغل النبيﷺ عن رسالته ومهام دعوته، لأن مما يستقر في أذهان المتلقين أنه: إذا كان الله تعالى قد تعامل مع من تظاهر على النبيﷺ من أزواجه بهذه الطريقة، فكيف بمن يتظاهر ضده من المشركين والمنافقين؟!

(١) روح المعاني ٢٨/ ٤٦٦.

رابعا- ومع ذلك فلا ينبغي التقليل من الحادث وتوهين أثره في نفس النبيﷺ، فاحتياج الأمر إلى إعلان موالاة الله تعالى، وبيان مظاهرة جبريل وصالح المؤمنين والملائكة المقربين يومئ إلى أن "الموقف في حس الرسولﷺ وفي محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذا الإعلان"(١)، كما سبق بيانه.

*****

وبعد الترغيب والترهيب اتجه النظم الحكيم إلى تحذير المخاطبتين وغيرهما من الاغترار بسعة صدر النبيﷺ وصبره عليهن، إذ قد يضيق صدره عن تحمل أمثال هذا الصنيع فيفارقهن- وهو تهديد تنخلع له القلوب، لأن "أشد ما على المرأة أن تُطَلَّقَ، ثم إذا طُلقت أن يُستَبدَلَ بها، ثم أن يكون البدل خيرا منها"(٢)-

فقال تعالى:"عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا".

وجيء به مفصولا عما قبله لشبه كمال الاتصال الذي تتواصل فيه المعاني، من طريق أن الجملة الأولى تتولد منها الثانية، وكأنها أصل ينبثق منه فرع، وبه تبدو كل جملة موضوعة وضعا لا تحتاج فيه إلى ما قبلها، آتية مأتى ما ليس قبله كلام(٣)، وهى مع هذا الوضع مستقلة موصولة بالتي قبلها من حيث المعنى وصلا قويا، لا تحتاج معه إلى رابط(٤)، هذا بجانب ما

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١٦.
(٢) نظم الدرر ٨/ ٤٩.
(٣) دلائل الإعجاز ٢٣٦- بتصرف.
(٤) دلالات التراكيب ٣٠٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

له من تأثير شديد في تحريك نفوس المخاطبين، وإثارة أذهانهم إلى فهم مقاصد الكلام وإدراك مراميه، والتفاعل مع ما فيه من مواعظ وتوجيهات، كما أنه يبرهن على قوة الأسلوب وتناسق عباراته، وبيان ذلك أن قوله "إِنْ تِتُوبَا إِلَى اللهِ..." يمكن أن يدفع المخاطب أو المتلقي إلى التساؤل عن نتائج الرغبة عن التوبة والإصرار على المظاهرة ضد رسول الله والكيد له، فتأتي الآية التي بين أيدينا لتبين أن الطلاق والفراق حل يمكن أن يلجأ إليه النبيﷺ، ليريح باله، ويتفرغ لما هو أكبر وأعظم من كيد النساء وتظاهرهن.

ويمكن أن يكون الفصل لكمال الاتصال، ذلك أن التهديد بالطلاق والاستبدال من شأنه أن يُقوِّيَ الرغبةَ في التوبة والاستقامة عند المخاطَبتين، وبذلك تنزل الآية الثانية من الأولى منزلة التوكيد المعنوي، ومن ثم تصبح الصلة بينهما قوية لدرجة لا يحتاجان معها إلى واصل لفظي.

وفي الآية التي معنا عدل النظم الحكيم عن خطاب الزوجتين إلى خطاب الجميع، لكي تقلع القائمة بالتظاهر، وتحذر غيرُها من أن تنهج نهجها، و"عَسَى" من أفعال الرجاء، وهو هنا مستعمل في التحقيق، وأوثر "لأن هذا التبديل مجرد فرض وليس بالواقع، إذ لا يُظن بهن عدمُ الارعواء عما حُذِّرن منه"(١)، وفيه أيضا إلماح إلى أن الطلاق والاستبدال سيؤخذ مأخذ الجد إذا حدث منهما أو من غيرهما عود إلى المظاهرة والكيد، والتعبيرُ عن المسند إليه بعنوان الربوبية "رَبُّهُ"، الذي يعني: المتكفل بمصالح خلقه وقضاء حاجاتهم(٢)، مع إضافته إلى ضمير النبي ﷺ فيه بجانب التشريف إلماح إلى أن التطليق والترك لن يترتب عليه أي تأثير في حياة النبيﷺ ولا في

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٦٠.
(٢) المفردات- مادة رب.

نفسيته، ذلك أن ربه سبحانه وتعالى متكفل بإزالة آثاره، وتحقيق ما يسعد نبيه، ويساعده على القيام بمهامه، وفيه من الشدة والإفزاع ما لا يخفى.

ومجيء الشرط "إِنْ طَلَّقَكُنَّ" معترضا بين اسم عسى وخبرها فيه تنبيه إلى أن الإبدال سيحصل معه تطليق وفراق، يُحْرَمْن بعده من شرف صحبة النبيﷺوعِزِّ رفقته، ويُصَعِّب من احتمال الرجوع إلى العيش في كنفه، والتمتع بالمأوى إلى بيته، وفيه نوع من الإيلام النفسي الدافع إلى الرجوع عن المظاهرة والإقلاع عن الكيد، ولو جيء بالتعبير خاليا من الشرط لما فهم إمكانية حصول الفراق، ولفات الجمع بين العقوبة الحسية والعقوبة النفسية، المتجانسة مع ما حصل للرسولﷺمن ألم نفسي نتج عن المظاهرة والمكايدة، وإسناد التطليق إلى ضمير الرسولﷺدال على أن القرار فيه راجع إليهﷺ،ولا اعتراض فيه عليه،سواء حدث لبعض الأزواج،أوحصل للجميع.

والتعبير بـــ "إنْ" التي تفيد الشك أداة للشرط فيه إشارة تنبيهية إلى أن الطلاق لا يُستبعد حصولُه، وأنه احتمال قائم، وأنّ لينَهﷺ وكريمَ أخلاقه لا يعنيان أنه لن يفكر في التطليق، ويعد تأخيره في الذكر مع استخدام "إنْ" إشارة إلى تأخير اللجوء إليه، وليس إلى امتناع حصوله، وجواب الشرط محذوف يفسره قوله "عَسَى رَبُّهُ..."، والتقدير: إن طلقن فعسى ربه...، وفي الحذف رمز إلى أن أمر الإبدال بعد التطليق بدهي، لا يحتاج إلى تصريح أو إعادة بيان.

وقوله "أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا..." في محل نصب خبر "عَسَى"، وجيء به مضارعا مسبوقا بـــ "أنْ" للإلماح إلى تجدد التبديل واستغراقه مدة زمنية تحدث فيها حسرة متجددة لكل من حرمت نفسها من صحبة النبيﷺ وحسن عشرته، و"قرئ بتسكين الباء وكسر الدال مع تخفيفها، كما قرئ بفتح الباء

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وتضعيف الدال مع كسرها "يُبَدِّلَهُ"، والأولى إشارة إلى مطلق الإبدال، والثانية دلالة على الإبدال المبالغ فيه"(١)، وفي إسناده إلى ضمير "رَبُّهُ" تشريف للرسولﷺ ببيان أن الله سبحانه وتعالى سيتولى بنفسه أمر الإبدال، ولن يحوج رسوله إلى البحث والانشغال، مما يجعله سهلا ميسورا، بجانب أنه مأمون العواقب معدوم المسالب، يقول البقاعي "ومن التشريف إسناد الطلاق إليهﷺ، والإبدال إلى الله تعالى، مع التعبير بصفة الإحسان، وتخصيص الإضافة بضميره"(٢).

و"أَزْوَاجًا" مفعول ثان لـــ"يُبْدِلَهُ"، نكر للتعظيم والتكثير، وأوثر بالتعبير دون "نساء" أو غيره، لبيان أن الإبدال سيكون ناتجا عن زواج، مما يعني أن البديلات حرائر لا سرائر، إذ الأوجع لقلب الحرة أن يتزوج الرجل حرةً غيرَها، ثم أن تكون الحرة أفضل منها، يؤازره ويقويه الوصف بقوله "خَيْرًا مِنْكُنَّ" الذي جيء به منكرا، ليتوافق مع "أَزْوَاجًا" في التعظيم وتكثير وجوه الخيرية، على نحو يثير المتلقي والمتلقية إلى ترقب الإفصاح عن هذه الوجوه، فيما يعرف بالتفصيل بعد الإجمال، أو الإيضاح بعد الإبهام، "فإن المعنى إذا ألقي على سبيل... الإبهام، تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقي تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورُها به أتم... أو لتفخيم الأمر وتعظيمه"(٣)، وبجانب ذلك فإن الإفصاح عن صفات البديلات في قوله تعالى: "مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا" فيه من الأسرار البلاغية ولطائف المعاني ما يلي:

---

(١) يراجع: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٧، البحر المحيط ٧/ ٢٨٨، نظم الدرر ٨/ ٥٠.
(٢) نظم الدرر ٨/ ٥٠.
(٣) الإيضاح بشرح الشيخ عبدالمتعال الصعيدي ١/ ١١٧.

أولا- دعوة أزواج النبيﷺ إلى المداومة على التحلي بالصفات المذكورة عن طريق التلميح والإشارة.

ثانيا- زيادة حسرتهن ووجع قلوبهن من خلال الإعلام بأن البديلات على تلك الصفات المحببة إلى الرجال.

ثالثا- تذكيرهن بأنهن ما اكتسبن التفضيل على النساء إلا من مكانة زوجهنﷺعند الله، ومن ثم الإلماح إلى ضرورة حفظ هذه النعمة، وشكر الله تعالى عليها بحسن تَبَعُّل من كان سببا فيها، حتى لا يحدث الطلاق والاستبدال بهن أزواجا على شاكلتهن أو أفضل منهن.

رابعا- البرهان على عظيم أثر ما قمن به من تظاهر ومكايدات في نفس النبيﷺ، مما يجعل في الإفصاح عن صفات البديلات نوعا من تطييب خاطر الرسولﷺ، وتطمينه إلى أن المتصفات بالصفات المذكورة لن يشغلهن التظاهر والكيد، بقدر ما يشغلهن معاونته على أداء رسالته، والحرص على راحته، والسعي في حاجاته.

فمعنى "مُسْلِمَاتٍ": منقادات لله تعالى ولرسولهﷺ انقيادا ظاهريا، و"مُؤْمِنَاتٍ" يعني: مُصَدِّقات بالقلب، و"قَانِتَاتٍ" من الفعل قنت، يعني: في غاية ما يكون من الذل والانكسار والمبادرة إلى امتثال الأمر في المنشط والمكره، يقول ابن فارس "القاف والنون والتاء أصل واحد يدل على طاعة وخير في دين"(١)، و"سَائِحَاتٍ" يعني: صائمات، "يقال للصائم: سائح، لأن السائح لا زاد معه، فلا يزال ممسكا إلى أن يجد من يطعمه، فشبه بالصائم الذي يمسك إلى

(١) مقاييس اللغة- مادة قنت.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أن يجيء وقت إفطاره"[١]، والـ "ثيب" هي المرأة التي تزوجت من رجل آخر ثم فارقته بالموت أو الطلاق، "وقيل: إنما سميت بذلك، لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام معها، أو إلى غيره إن فارقها، وقيل: لأنها ثابت إلى بيت أبويها، وهذا أصح، لأنه ليس كل ثيب تعود إلى زوج، وأما الـ"بكر" فهي العذراء، سميت بكرا لأنها على أول حالتها التي خلقت بها"[٢].

وبدأ بوصف "مُسْلِمَاتٍ" لكونه يدل على الانقياد والتسليم، وعدم مناكفة الزوج أو شغله بأي أمر عن مهامه وأعماله، وثنّى بـ "مُؤْمِنَاتٍ"، للدلالة على أن التسليم الذي يتمتعن به نابع من روح يقظة و قلب مؤمن، تنقاد له الجوارح انقيادا، وتصغي إليه إصغاءا، ولما كان الإيمان يزيد وينقص عبّر بـ "قَانِتَاتٍ" للإشارة إلى حرصهن على القيام بما يزيد إيمانهن ويقويه، حتى تستقيم عشرتهن مع رسول اللهﷺ، وأتبعه بـ "تَائِبَاتٍ" للإشارة إلى رجوعهن السريع عن الهفوات والزلات إن وقع منهن شيء في حق الله تعالى، أو في حق زوجهن، أو في حق أحد آخر، ولما كان ذلك مصححا للعبادة ميسرا لدوامها قال "عَابِدَاتٍ"، للإلماح إلى أثر التوبة في المداومة على العبادة والانشغال بها، ثم عبر بـ "سَائِحَاتٍ" للإشارة إلى تخليهن عن الدنيا والاستغراق في الآخرة بما أقله الصيام، بجانب أن المرأة إذا كانت كثيرة الصيام قليلة الطعام خفت حركتُها، وطابت رائحتها، بسبب قلة العرق، وكانت أقدر على خدمة زوجها، والقيام بمتطلباته.

---

(١) مفاتيح الغيب- للفخر الرازي ٣٠/ ٥٧١- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

(٢) الجامع لأحكام القرآن- للقرطبي- تحقيق أحمد البردوني ١٨/ ١٩٤- دار الكتب المصرية- القاهرة.

وبعد الحديث عن الصفات الدينية المفيدة في حسن عشرة الزوج، تحدث عن الصفات البدنية فقال: "ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا"، مبتدئا بالـــ "ثَيِّبَاتٍ" مناسبةً للسياق الذي يتحدث عن طيب العشرة، وتقدير الزوج، إذ هن "أوفى لواجبات الزوج، وأميل مع أهوائه، وأقوم على بيته، وأحسن لعابا، وأبهى زينة، وأحلى غنجا، وعطف عليهن بالواو التي تفيد الجمع "أَبْكَارًا" لما لهن من صفات تهفو إليها نفوس الرجال، إذ البكر أشد حياء، وأكثر غرارة ودلّا، وفي ذلك مجلبة للنفس، كما أنها لا تعرف رجلا قبل زوجها، وفي نفوس الرجال ميل إلى المرأة التي لم يسبق إليها غيرهم"[(١)]، ووجه مجيء الواو بين الوصفين الأخيرين أنهما صفتان متنافيتان لا تجتمعان في امرأة، كما تجتمع باقي الصفات، إذ لا تنافي بينها.

(١) يراجع: التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٦٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المعقــد الثالث

من أسرار الدعوة إلى الاهتمام بالبيت

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (التحريم ٦- ٨).

علاقة الآيات بالسياق:

بعد علاج ما حدث في بيت النبوة بالوعظ تارة وبالتهديد أخرى، وتعقيبا على الحادث الذي كان ذا وقع عميق في نفوس المؤمنين دلف النظم الحكيم إلى بيوت المسلمين فنبّه أربابها إلى ضرورة الاهتمام بها، والعمل على حسن تربية أفرادها، مع توضيح ثمرة الاجتهاد في تحقيق ذلك، وبيان عاقبة الإهمال فيه، يقول ابن عاشور"كانت موعظة نساء النبيﷺ مناسبةً لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم، وألا يصدهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم، وإن كان في ذلك بعض الأذى"[(١)].

مزايا النظم وأسراره:

يبدأ النظم الحكيم هذا المعقد الخاصَّ بالبيوت بنداء أربابها أو القائمين على أمرها في قوله تعالى"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..."، لما للنداء من مزية إثارة

(١) التحرير والتنوير ٣٢٧/٢٨..

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المنادَى وتنبيهه إلى أهمية ما يأتي بعده من أوامر أو نواه، ليتلقاها بقلب يقظ، وذهن متطلع إلى تنفيذها، لأنها تدخل في صميم الإيمان، ومن ثم يكمُل إيمانه، ويخلُص من الخلل والتقصير، الذي يرمز إليه إيثار حرف "يا" الدال على بعد المنادَى وتفريطه في التعاطي مع ما ينادى من أجله، بجانب ما يفيده النداء من تشريف، يتمثل في تفضل المولى سبحانه وتعالى وتكرمه بخطابهم والحديث إليهم فيما يخص بيوتهم، ويتمثل كذلك في منحهم وصف الإيمان وتسميتهم مؤمنين، على الرغم من عدم إعطائهم البيوت حقها الكامل وحظها الوافر من العناية والتربية والتوجيه.

يقول أحد البلاغيين: "ومن السنة البيانية للقرآن في نداء أمة الإجابة أن ينادِيَ عليهم بـــ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"، تذكيرا لهم بالعهد الذي عاهدوا الله تعالى عليه، وهو الإيمان بما أمرهم به، وكأنه بهذا يحثهم على أن يُقبلوا على ما أمرهم به فيأخذوه، وعلى ما نهاهم عنه فيجتنبوه، واختيار "يَا" للنداء- وهي عند بعض أهل العلم لنداء البعيد- فيه إشارة إلى أن المنادَى فيه شيء من البعد بالتقصير والمعصية عن المنادِي جل جلاله، ومن ثم فإن عليه أن يُصغِيَ لما ينادى به عليه، ليزداد بهذه الطاعة قربا، وربما يكون السر في ذلك هو: إعلام المنادَى بأنه غير عارف ما ينادى عليه من أجله، لأنه أمر جديد بالنسبة له.

وتعريف المنادَى بالموصول "الّذِينَ" دليل على أنه المعروف بتلك الصلة، التي هي الإيمان، وكأن هذا الإيمان هو أَجَلُّ ما يُعرف به ذلك المنادى، فهو شرفه الذي عليه أن يتمسك به، وأن يفخر بنعته به، وأن يسعى إلى زيادته وتثبيته بالإكثار من الطاعات والفرار من السيئات، ومن ثمّ

فإن عليه العناية بما هو آت بعد ذلك النداء من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر"[١].

ويبدو لي أن النداء هنا موجه إلى أرباب البيوت من المؤمنين والمؤمنات على السواء- مع أن التعبير يخاطب الرجال بالدرجة الأولى- لأن المصلحة المرجُوّة والصلاح المُؤَمَّل يتحقق بأن يكون النداء شاملا الزوجين، لكي تقوم به النساء مع أزواجهن إذا لزم الأمر، ولكي لا يغيب أمر الوقاية والتوجيه عند غياب الرجال بالسفر أو الفراق أو الموت.

وبعد النداء يأتي الأمر القرآني الموجه إلى أرباب بيوت المؤمنين "قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا"، وفيه عبر عن موعظة الأهل وتحذيرهم بالوقاية من النار "قُوا"، على سبيل المجاز المرسل، إذ الموعظة سبب رئيس في تجنب ما يفضي إلى عذاب النار، أو على سبيل الاستعارة التصريحية، التي شبهت فيها الموعظة بالوقاية من النار على وجه المبالغة في الموعظة، بتصويرها مانعا يمنع الإنسان وأهله من الوقوع في النار، ويحول بينهم وبين ذلك، وتلك مزية من مزايا التعبير المجازي الذي ينفض عن الأشياء أوصافها الأليفة، ويفرغ عليها أوصافا وجدانية، تمنحها التأثير، وتزيد من الترغيب فيها إن كانت محمودة، ومن النفور منها إن كانت مذمومة، وبه نرى "الأشياء قد تحولت عن طبيعتها، وبرزت في غير صورها الحقيقية، وانتقلت الكلمات من أوديتها، أو قل تحولت معانيها المألوفة إلى معان جديدة، وتبدلت صورها المعروفة إلى صور غير معهودة"[٢].

---

(١) شذرات الذهب- د. محمود توفيق محمد سعد ٦٧.

(٢) التصوير البياني- د. محمد أبوموسى ١٧٦(بتصرف)- مكتبة وهبة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يقول الإمام عن الاستعارة: "ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدًا في صورة مستجدة، تزيد قدره نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلابة موموقة، ومن خصائصها التي تذكر بها، وهى عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخْرِجَ من الصدفة الواحدة عدةً من الدرر، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر... كما أنك ترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية"(١).

ولا يخفى أن جعل الموعظة سببا في الوقاية من النار، أو تصويرها بالواقي، وتشبيهها بالمانع من شأنه أن يدفع إلى القيام بها ويزيد من الحرص عليها، هذا بجانب ما يوحي به جرس الفعل "قُوا" من قوة وحزم يتناسبان مع سياق الأمر ومقامه، ويجعلان التقصير فيه ذنبا عظيما لما يترتب عليه من أضرار صرّحت السورة الكريمة- فيما بعد- بأخطرها وأعظمها.

<u>والسر في تقديم النفس على الأهل ما يلي:</u>

أولا- أنه راجع إلى ما جُبل عليه الإنسانُ من حب النفس والخوف عليها، وتقديمها في ذلك على غيرها.

ثانيا- أن موعظةَ النفس وتذكيرَها أدعى إلى تأثيرها في غيرها عند موعظته وتذكيره.

(١) أسرار البلاغة- عبدالقاهر القاهر الجرجاني- تحقيق/ شاكر ٤٢ وما بعدها.

ثالثا- أن صلاحَ رب الأسرة عاملٌ مساعدٌ في صلاح باقي أفرادها ومُعينٌ عليه.

وعَطْفُ "أَهْلِيكُمْ" على "أَنْفُسَكُمْ" بالواو التي تفيد المصاحبة والمشاركة في الحكم إشارة إلى ضرورة أن يكون الحرص على موعظة الأهل ووقايتهم من النار مماثلا للحرص على موعظة النفس ووقايتها، وأن يحصل الأمران في وقت شديد التقارب، كأنهما متصاحبان، أو يحصلا متصاحبين في وقت واحد، وفي إعادة ضمير المخاطَبين مع"الأهل"، وإضافتهم إليه كما أضيفت "الأنفس" ما يقوي الإشعار بضرورة أن يَنزلوا من الرجل منزلة نفسه التي يحبها، ويحرص على وقايتها من النار، ويعمل على نجاتها من كل مهلكة، "والمراد بالـــ"الأهل" الزوج والأولاد بالدرجة الأولى، وقيل: الأولاد يدخلون في "أَنْفُسَكُمْ" لأن الولد بعض من أبيه"(١).

وقرئ "أَهْلُوكُم" بالواو عطفا على الضمير في "قُوا"، وحسن العطف للفصل بالمفعول، والتقدير عند بعضهم: ولْيَق أهلوكم أنفسَهم(٢)، وعند الزمخشري: قوا أنتم وأهلوكم أنفسَكم(٣)، وهاتان القراءتان تجعلان الوقاية من النار بالموعظة والتربية مسؤولية كل فرد من أفراد الأسرة، أما قراءة النصب "أَهْلِيكُمْ" فإنها تجعل الموعظة والوقاية من واجبات رب الأسرة المؤمن، لما يتمتع به من إيمانٍ يَتَّقِدُ، وخبرةٍ تؤهله للقيام بذلك، وهو ما أكده النبيﷺ في قوله "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ..."(٤)، ولا

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٧، ونظم الدرر ٨/ ٥١.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٧، وروح المعاني ٢٨/ ٤٦٩.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٦.
(٤) البخاري- كتاب بدء الوحي- برقم ٨٩٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

تعارض أو تضاد بين هذه القراءات، لأنها في الحقيقة تهدف- بأكثر من طريق- إلى أن يكون البيت واحة إيمانية، وصومعة عبادة وتبتل، يتمتع كل أفراده بخشية الله تعالى، ويشغلهم جميعا التفكير في كيفية النجاة من النار، والفوز بالجنة، ويتعاونون على ذلك، ومن ثم تنعم البيوت بالاستقرار، وتخلو من المناكفات والمكايدات، ويقوم كل واحد من أفرادها برسالته من غير انشغال ولا إشغال.

وجيء بالمفعول الثاني "نَارًا" نكرةً منونةً لما يلي:

أولا- الإلماح إلى أن حقيقة هذه النار مجهولة للناس أجمعين، ولا يعلمها إلا الله رب العالمين.

ثانيا- الإيحاء بأنها نيران متنوعة، منها ما يوقد بالناس والحجارة، ومنها ما يوقد بغير ذلك.

ثالثا- إفادة التعظيم والإفزاع معنى وجرسا.

رابعا- ليتسنى وصفه بوصفين مناسبين للسياق، أولهما- "وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ"، والآخر- "عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ...".

و"الوَقُود": الحطب الذي توقد به النار، وبالضم: الاتّقاد، وقرئ "النّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ"(البروج ٥)[١]، وفي إضافته إلى الضمير العائد إلى النار إلماح إلى أنها نار تمتاز عن غيرها بأنها لا تتقد إلا بالناس والحجارة، وذلك يدل على قوتها من وجهين: أولهما- أن سائر النيران إذا أريد إحراق الناس بها، أو إحماء الحجارة فيها أوقدت أولا بوقود، ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماؤه، أما هذه- أعاذنا الله منها- فإنها توقد بنفس ما تَحرِق، والآخر-

(١) الصحاح- مادة وقد.

أنها لشدة حَرِّها تتقد في الحجر، والمراد به: سائر الحجارة، ووجه دلالة ذلك على شدتها: أن الأحجار مُطفئَةٌ للنيران، فإذا كانت تشتعل بما يطفئها، ففيه دلالة واضحة على قوتها، يعزز ذلك المعنى ويقويه ما في الجملة من قصر، طريقه تعريف المسند إليه "وَقُودُهَا"، والمسند "النَّاسُ"، والذي من أغراضه تمكين الكلام وتقريره في ذهن المتلقي، لدفع ما فيه من إنكار أو شك أو تقصير، لأنه يفيد ذلك هنا بطريقين، أولهما- نفي اتقاد هذا النوع من النار بأي وقود، والآخر- إثبات اتقادها بالحجارة والناس المقصرين في وقاية أنفسهم وأهليهم منها، ولا يخفى ما فيه من تهويل وتخويف مؤديين إلى تحقيق الغرض المنصوب له البيان.

وقَرْنُ "النَّاسُ"، بـــ "الْحِجَارَةُ" فيه نوع آخر من العذاب الذي يتعرض له من يتهاونون في وقاية أنفسهم وأهليهم من النار، ألا وهو العذاب النفسي الناجم عن تسويتهم بالأحجار في المهانة والرخص وفي الرمي دون اعتبار ولا عناية، وما أقساه من عذاب ذلك الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانةَ والتحقير، ويبدو لي في تقديم "النَّاسُ"على "الْحِجَارَةُ" إلاحة إلى أن هذه النار تشتعل بالناس أولا وبالحجارة ثانيا، وربما يكون ذلك إشارة إلى أن الناس فيها أكثر، والله أعلم.

وجئ بقوله "عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ..." وصفا ثانيا للنار، لقطع أمل المعذبين بها في أي نوع من أنواع الرحمة، وأي شكل من أشكال الشفقة، إذ من الممكن أن يكون القائمون على أمرها- برحمتهم وشفقتهم- سببا في تخفيف العذاب عمّن فيها، ومن ثم كان هذا الوصف ضروريا، لزيادة الإفزاع والتخويف من التقصير في وقاية الأنفس والأهل من هذه النار، وفي جملته من خصائص النظم ودلالاته ما يلي:

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أولا- التعبير بحرف الجر المفيد للاستعلاء في قوله "عَلَيْهَا"، والدال على تمكين الملائكة من التحكم في النار وتصريف أحوال الناس فيها وفق أوامر الله تعالى، على سبيل الاستعارة التبعية التي شُبّهت فيها هيئةُ ملائكة النار القائمين عليها بهيئة المستعلي على الدابة المتحكم في قيادتها وترويضها.

ثانيا- تنكير المسند إليه "مَلَائِكَةٌ" وتنوينه، لإفادة التعظيم بالمعنى والجرس، وليتسنى وصفه بما سيتم بيانه.

ثالثا- وصف المسند إليه بأوصاف لو خلا منها التعبير، واقتصر على قوله "عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ" لما كان له هذا الأثر المرعب، وذلك الظلال المخيف، لأن المتبادر إلى الذهن عند سماع لفظ "مَلَائِكَةٌ" مجردا: الاستبشارُ بالرحمة والشفقة، نظرا لما يعرف عن طبيعتهم الفطرية، وتكوينهم التعبدي، ومن ثم كان ذكر هذه الأوصاف ضرورةً لتحقيق الصدمة الكاشفة لحقيقتهم، والهزة العنيفة الدافعة إلى القيام بما يُنجي من هذه النار ويُعفي من شدة حراسها وغلظتهم.

وفي وصفهم بـــ "غِلَاظٌ" مجردا من الإضافة نوع من التعميم الموحي بأنهم غلاظ في الأبدان، غلاظ في القلوب، غلاظ في المشاعر والأحاسيس، بخلاف قوله تعالى "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ..."(آل عمران ١٥٩)، وفي التثنية بـــ "شِدَادٌ"- الذي يعني: شدة البدن- زيادة في التيئيس، وقطعِ الأمل في الفرار من هذه النار أو الخروج منها بأية صورة من الصور، لأن خلو التعبير من هذا الوصف قد يترتب عليه التفكير في غلبتهم أو الفرار منهم، حيث لا قيمة لغلظة القلوب والمشاعر مع ضعف الأبدان وانعدام قوتها.

كما وصفهم النظم بجملتي"لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" تحقيقا لأمرين:

أولهما- الثناء عليهم، لما يقتضيه الوصفان الأولان من كراهية النفوس لهم.

الآخر- بيان أنهم يمارسون الغلظة والشدة على أهل هذه النار بأمر من الله سبحانه وتعالى، وهذا ما يفهم من إسناد الفعل المنفي "لَا يَعْصُونَ" إلى اسم الجلالة العلم "اللَّهَ"، بما فيه من تربية المهابة والإعلام بأنهم قائمون على النار بتكليف من الله عزوجل، وأن العذاب فيها بأمره جل شأنه، ومن ثم فلن يكون من الملائكة مخالفة لأوامر ربهم، مما يزيد التيئيس، ويضاعف الحسرة.

وأوثر التعبير بالمضارع "لَا يَعْصُونَ- يَفْعَلُونَ- يُؤْمَرُونَ" للدلالة على تجدد طاعتهم والتزامهم عند كل أمر يؤمرون به، كما جيء بحرف النفي"لَا" واسم الموصول "مَا" قبل الفعلين"أَمَرَهُمْ" و"يُؤْمَرُونَ"، وكلاهما مختوم بألف الإطلاق للإلماح إلى استعدادهم للقيام بالتكاليف مهما كانت، وكيفما كانت، وبناء "يُؤْمَرُونَ" لما لم يُسَمَّ فاعلُه فيه دلالة على سهولة انقيادهم، ليقينهم القاطع وعلمهم الراسخ بأن مصدر ما يؤمرون به من شدة وغلظة على من في النار هو الحق سبحانه وتعالى.

وبين العلماء خلاف في المعنى الذي تفيده جملة "وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"، منشؤه العطف الذي يقتضي المغايرة، فقيل: إنها تكرار لجملة "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ"، وهو تكرار يفيد التوكيد(١)، ويرى الزمخشري أنها

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٨٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مغايرة للأولى "لأن معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره سبحانه و يلتزمونها، ولا يأبونها، ولا ينكرونها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به، لا يتثاقلون عنه، ولا يتوانون فيه"(١)، وإلى القول بالمغايرة ذهب الآلوسي، إذ يقول "والجملة الأولى لنفي المعاندة والاستكبار عنهم... والثانية لإثبات الكياسة لهم ونفي الكسل عنهم"(٢)، وأورد القزويني قول بعضهم "لا يعصون الله في الحال، ويفعلون ما يؤمرون في المستقبل" ولم يجعله من طباق السلب، لأن العصيان يضاد فعل المأمور به، فكيف يكون الجمع بين نفيه وفعل المأمور تضادا؟!(٣).

وحاول ابن عاشور الجمع بين الرأيين، حين قال:"وأما قوله "وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"، فهو تصريح بمفهوم "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ" دعا إليه مقام الإطناب في الثناء عليهم، مع ما في هذا التصريح من استحضار الصورة البديعة في امتثالهم لما يؤمرون به، وقد عطف هذا التأكيد عطفا يقتضي المغايرة تنويها بهذه الفضيلة، لأن فعل المأمور به أوضح في الطاعة من عدم العصيان... و لك أن تجعل مرجع "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ" أنهم لا يعصون فيما يُكلفون به من أعمالهم الخاصة، ومرجع "وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" إلى ما كلفوا بعمله مع العصاة في جهنم"(٤).

ويبدو لي أن تغايرَ الجملتين وتنوعَ دلالتهما أكثر توافقا مع سياق الآية ومقامها، المُفهِم تعددَ صفات الملائكة القائمين على أمر هذه النار

(١) الكشاف ٤/ ٥٦٩.
(٢) روح المعاني ٢٨/ ٤٧٠.
(٣) الإيضاح بتعليق الشيخ الصعيدي ٤/ ٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٦٦.

وكثرة سجاياهم، لأن ذلك أدعى إلى أن يقوموا بدورهم على أكمل وجه، كما أنه يزيد من رعب المتلقي وإفزاعه، وإثارته لتحقيق الغرض المقصود، بمزيد من الحرص على وقاية نفسه وأهله من هذه النار، ويمكن أن يكون التقدير: أنهم يتقبلون أوامر الله تعالى ولا ينكرونها حال أمرهم بها، ويؤدون ما يؤمرون به، لا يتثاقلون عنه، ولا يقصرون فيه عند قيامهم به.

*****

وبعد بيان أن عاقبةَ التقصير في حق النفس والبيت هي التعذيب في النار، استطرد النظم الحكيم إلى عرض أحد مشاهدها، زيادة في التنفير من موجباتها بصفة عامة، ومن التقصير في حق الأنفس والأهلين بصفة خاصة، فقال سبحانه "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"، وهو مشهد يذكر فيه الذكر الحكيم جزءًا من حديث الملائكة إلى الكافرين في تلك الجحيم، وهو حديث يبدأ بالنداء الذي يفيد التحسير والتبكيت، كما أنه يذكرهم من خلال الصلة "الَّذِينَ كَفَرُوا" بالسبب الذي من أجله وَرَدُوا هذا المورد، وهو الإخلال بالأدب مع الله تعالى ومع رسوله ﷺعلى وجه العموم، والتقصير في حق النفس والبيت على وجه الخصوص، وأوثر التعبير بالماضي "كَفَرُوا" للدلالة على رسوخ قدمهم فيه، وتمكنه منهم فضل تمكن.

وكان النداء بحرف البُعد "يَا" مع قرب الملائكة منهم؛ تنزيلا لهم منزلة البعيد الذي لا رغبة لأحد في الاقتراب منه أو الالتصاق به، وفيه من التحقير و الإهانة ما يمثل بعدا نفسيا من العذاب يضاف إلى البعد الحسي المتمثل في الإحراق بالنار، هذا بجانب ما يفيده النداء من تنبيه المنادى ولفت انتباهه إلى ما يأتي بعده من أوامر أو نواه، كما سبق ذكره.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وجواب النداء قوله "لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ" وهو نهي، غرضه التيئيس من قبول اعتذارهم، وحذْفُ معموله إلماحٌ إلى عموم النهي عن الاعتذار والتوبة، ويدخل فيه الاعتذار والندم على التقصير في حق الأنفس والأهلين دخولا أوليا، ومجئ فعل الاعتذار بصيغة الافتعال يشير إلى أن المبالغة والتكلف في إظهار العذر وتبرير التقصير أمر غير مقبول، وأنه "إذا نهي عن المبالغة في الاعتذار لعدم نفعها، كان النهي عن مطلقه مفهوما ومقصودا من باب أولى"(١)، وذكر"الْيَوْمَ" فيه إشعار باللوم على التفريط في التوبة والرجوع عن التقصير وتأخيرهما إلى اليوم الذي لا مجال فيه للاعتذار، ولا قبول.

وجملة "إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" فصلت عما قبلها لشبه كما الاتصال، الذي تجيب فيه هذه الجملة عن السؤال الذي تثيره في أنفس المخاطبين جملة "لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ"، ببيان السبب الذي من أجله ينهون عن الاعتذار في يوم القيامة، وهو أن ذلك اليوم يومُ حساب وجزاء، لا يوم توبة واعتذار، وفيه إشعار بأن سماع صوتهم بالاعتذار أو غيره أمر غير مرغوب فيه، ودليل ذلك الإجابة عن سؤال يدور بخلدهم، والرد عليه قبل أن يصدر عنهم، وهو نوع من العذاب النفسي يضاف إلى العذاب الحسي، زيادة في التحذير، وإبلاغا في التنفير مما يوردهم هذا المورد ويقفهم هذا الموقف، وفي الجملة من مزايا النظم ودلالاته ما يلي:

أولا- التعبير عن ذلك المعنى بأسلوب القصر، الذي يفيد التأكيد بطريقين، أولهما- نفي أن يكون ذلك اليوم يوم توبة واعتذار، والآخر- إثبات أنه يوم

(١) نظم الدرر ٨/ ٥٣.

حساب وجزاء، وهو من باب قصر القلب، الذي يتم به تصحيح اعتقاد خاطئ رسخ عند المخاطبين، وظهرت عليهم بوادره، حيث تم تصحيح ذلك لهم، وتيئيسُهم منه.

ثانيا- أوثر استعمال "إِنَّمَا" طريقا للقصر، لأن من سماتها: "أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة"(١)، مما يشير إلى أن عدم قبول الاعتذار في هذا اليوم أمر بدهي، لا مرية فيه ولا جدال، وأن المجازاة على الأعمال فيه كذلك.

ثالثا- بناء الفعل "تُجْزَوْنَ" لما لم يسم فاعله لسر بلاغي، هو العلم الذي يصل إلى حد اليقين بأن الذي سيتولى تلك المجازاة هو رب العالمين سبحانه وتعالى، وفيه دعوة إلى عدم الإخلال بالأدب مع الله جل جلاله، بتنفيذ ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، سواء ما ورد في سياق السورة أم في غيره.

رابعا- أوثر التعبير باسم الموصول "مَا" مفعولا للفعل "تُجْزَوْنَ"، فقيل: "تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"، ولم يُقل: تجزون عقاب ما كنتم تعملون، على سبيل المثال، لما يفيده إيقاع الفعل على اسم الموصول من أن الفعل نفسه قد تحوّل إلى عذاب يعذب به الكافر في نار جهنم، "فلا يبعد على الله تعالى أن يصور لكل إنسان صورة عمله، بحيث لا يشك أنه عمله، ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذي يجد فيه من الألم ما علم سبحانه أنه بمقدار استحقاقه"(٢)، والفرق واضح بين ما جاء عليه التعبير القرآني وبين غيره، وقد ورد في السنة النبوية ما يؤيده، ففي الحديث "قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ قَالَ "وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلا إِذَا كَانَ يَوْمُ

(١) دلائل الإعجاز ٣٣٠.
(٢) نظم الدرر ٨/ ٥٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلاَ جَلْحَاءُ وَلاَ عَضْبَاءُ تَنْطِحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاَهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ"(١).

خامسا- التعبير بالماضي "كُنْتُمْ" صلةً للموصول والإخبار عنه بالمضارع "تَعْمَلُونَ" لما يفيده الأول- بمادته وزمانه- من أن ما كانوا فيه كفر من بالله تعالى واستهانة بوقاية الأنفس والأهل من عذاب النار كان يصدر عنهم من باب الجبلة والطبع، وأن النصائح والتوجيهات بمختلف طرائقها لم تفلح في إثنائهم عنه، أو تنبيههم إلى خطئهم وضلالهم فيه، ولما يفيده المضارع "تَعْمَلُونَ"- الدال على التجدد- من الدلالة على إصرارهم على تلك الأعمال وتجدد قيامهم بها، ولو جاء التعبير عن هذا المعنى بغير الفعلين المذكورين، فقيل مثلا: "إنما تجزون ما عملتم"، لما أفاد هذا المعنى الذي يضيف مبررات وأسبابا جديدة لعدم قبول اعتذار الكافرين عند دخولهم الجحيم.

وفيه- بطريق المخالفة- نصح للمؤمنين وتوجيه لهم إلى المداومة على عدم الإخلال بالأدب مع الله تعالى ومع رسولهﷺ على وجه العموم، ودعوة إلى الرجوع عن التقصير في وقاية النفس والأهل من النار على وجه الخصوص، وهو ما تدعو إليه الآية التالية على سبيل التصريح.

*****

فبعد الحديث الموجز عن النار وعرض أحد مشاهدها، أرشد النظمُ الحكيمُ المؤمنين إلى طريق النجاة منها والفوز بالجنة، لتُحدِث المقابلةُ بين

(١) صحيح مسلم- كتاب الزكاة- برقم ٢٣٣٧.

الجنة ونعيمها والنار وعذابها أثرَها في تحقيق الغرض الذي تقصد إليه الآيات، وهو تحاشي التقصير في حق الله تعالى وحق رسولهﷺ، وتجنب الإهمال في وقاية النفس والأهل من عذاب النار، ومن ثمّ لا يحدثَ مثلُ ما حدث، مما تعملُ السورة على علاجه، وتحذر من تكراره في أي بيت من البيوت المؤمنة، يقول البقاعي "ولمّا أفهم الأمرُ بالوقاية والمدحُ للملائكة أن المأمورين بالوقاية مقصرون قال مرشدًا إلى دواء التقصير"[١] "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

وفيه أعيد نداء المؤمنين- مع قرب العهد به- للفصل بين النداءين بنداء الكافرين، ولأن في إعادة النداء "استدعاءً لهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطريةَ الإنصات لكل حكم نازل"[٢]، "فمما يقوي الأمر وقوعُه بعد النداء... الذي يوقظ النفس ويلفت الذهن، بما فيه من طلب ودعاء، فإذا جاء الأمر صادف نفسا مهيأة يقظة، فيقع منها موقع الإصابة، حيث تتلقاه بحس واع وذهن متنبه، وهذا دليل على عناية الآمر بأمره، ورغبته في إعداد النفوس لتلقيه"[٣]، بجانب ما في النداء بوصف الإيمان مما سبق بيانه.

---

(١) نظم الدرر ٨/ ٥٣.
(٢) الكشاف ٤/ ٣٥١.
(٣) دلالات التراكيب- د. محمد أبو موسى ٢٥٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وبعد النداء المُوقظ المُنبّه يأتي الأمر القرآني الموضح طريق الفوز بالجنة والنجاة من النار"تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا"، وهو أمر أفاد- بجانب معناه الحقيقي- معنى النصح والإرشاد إلى طريق الفوز بالجنة ووقاية الأنفس والأهل من النار، وأنه التوبة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، وإعطاء كل ذي حق حقه، فـ"التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل على: الرجوع، يقال: تاب من ذنبه أي: رجع عنه، وتاب الله عليه أي: عاد عليه بالمغفرة"(١).

وتعدية فعل التوبة إلى اسم الجلالة الأعظم "الله" بحرف الجر "إِلَى" الدال على انتهاء الغاية فيه- بجانب تربية المهابة والإجلال- إلماح إلى ضرورة أن تكون التوبة منتهيةً بالمؤمن إلى كل ما يرضي المولى سبحانه تعالى، ويقربه منه غاية القرب، وأن يحصل بها الرجوع عن كل شيء يقطع الطريق إلى الله ويبعد المؤمن عنه، وحُذِف متعلق الفعل ليعم الأمر بالتوبة ما ورد في سياق السورة وغيره، فيشمل التقصير في حق الله تعالى، وفي حق رسولهﷺ، والتفريط في حق النفس والأهل وغير ذلك، كما سبق بيانه.

وقوله "تَوْبَةً نَصُوحًا" بيان لنوع التوبة المأمور بها، وأنها التوبة النصوح، أي: الخالصة، من "نَصَحَ الشيءُ: خَلُصَ، والناصح: الخالص من العسل وغيره، وكل شيءٍ خلص فقد نصح"(٢)، يقول ابن فارس "النون والصاد والحاء أصل واحد يدل على ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما، ومنه النُّصح والنصيحة: خلاف الغش... والتوبة النصوح منه، كأنها صحيحة

(١) يراجع: مقاييس اللغة، وكذا لسان العرب- مادة توب.
(٢) لسان العرب- مادة نصح.

ليس فيها خَرقٌ ولا ثُلمة"[١]، وهو بزنة فعول، وأوثر بالاستعمال للدلالة على أن من مظاهر صحتها وقبولها أنها تكثر من نصح صاحبها بعدم العود إلى ما تاب منه مرة أخرى.

وفي وصف الـــ "تَوْبَةً" بـــ "نَصُوحًا" مجاز اختلف فيه العلماء: إذ يرى بعضهم: أنه من باب المجاز العقلي، لعلاقة المصدرية، حيث أسند ما في حكم الفعل وهو "نَصُوحًا" إلى المصدر وهو الـــ "تَوْبَةً"، لأن الأصل أن النصح صفة للتائبين، بمعنى: أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة، فيأتوا بها على وجهها[٢]، ويرى بعضٌ آخرُ: أنه من باب الاستعارة المكنية، حيث شُبّهت التوبة التي لا تردد فيها، ولا تخالطها نية العودة إلى العمل المتوب منه بإنسان ناصح[٣]، ثم حذف المشبه ورمز إليه بشئ من لوازمه، وهو النصح، الذي يعد إثباته للتوبة من باب الاستعارة التخييلية.

ويبدو لي أن كون المجاز من باب الاستعارة المكنية يخلع على التوبة نوعا من العقل، ويضفي على التعبير ضربا من التصوير، الذي تظهر معه التوبة قوية متحكمة في صاحبها، فتحول بينه وبين العود إلى ما كان فيه من تفريط وتقصير، وتمضي به قدما في طريق الحرص على إرضاء ربه، ليقيَ نفسه وأهله من نار جهنم، ويسيرَ بهما في اتجاه الجنة، وأرى أن ذلك أبرُّ بالمعنى من أن يكون التعبير من باب المجاز العقلي.

وجملة "عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ..." تعليل للأمر بالتوبة، ولذلك فصلت عنه كما يفصل الجواب عن السؤال، فيما يعرف بشبه كمال

---

(١) مقاييس اللغة- مادة نصح.

(٢) يراجع: الكشاف ٤/ ٥٩٦، البحر المحيط ٨/ ٢٨٨، نظم الدرر ٨/ ٥٤.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٦٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الاتصال، الذي يُحدِث عند المتلقي نوعا من التشويق والإثارة إلى فهم مقاصد الكلام وإدراك مراميه، ومن ثم يتم الامتثال لما يدعو إليه من فضائل، ويحصل الاجتناب لما يحذر منه من تفريط أو تقصير أو انحراف، وله في هذا السياق من الدلالات الخاصة ما يلي:

أولا- حثُّ المؤمنين على امتثال الأمر بالتوبة النصوح، ببيان ما لها من فوائد، على رأسها مغفرةُ الذنوب الحائلة بينهم وبين دخول الجنة، وذلك تماشيا مع سنة البيان القرآني في إتْباع الأمر والنهي بما يَحفِز المتلقي ويرغّبه في الاستجابة- تحلِّيا أو تخلِّيا- مهما كانت العقباتُ والصوارفُ [(١)].

ثانيا- تكريمُ المؤمنين وتشريفُهم بإظهار العناية بما يدور في دواخلهم، والإجابة عما تتحرك به نفوسهم، ولا شك أن استشعار هذا المعنى يزيد من إثارة المخاطبين إلى امتثال الأمر بالتوبة الناصحةِ بعدم التقصير في حق الله تعالى، وحق رسولهﷺ، وحق النفس والأهل.

<u>وفي الجملة المستأنفة من دقائق النظم وخصائصه ما يلي:</u>

أ- التعبير بفعل الرجاء والإطماع "عَسَى"، الذي يحتمل هنا وجهين: "أحدهما- أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل، مع وقوع ذلك منهم على سبيل القطع والبت، والآخر- أن يكون التعبير به من باب تعليم العباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء"[(٢)]، مما يعني: أن القطع بحصول المغفرة ودخول الجنة هو ما تقصد إليه الآية الكريمة، وأنّ

(١) أرى أن ميدان البحث البلاغي في حاجة إلى دراسة علمية تُعنَى بالبناء التركيبي للجمل الواقعة بعد الأمر والنهي في الذكر الحكيم، لتكشف عن المنهج القرآني في أمر المؤمنين ونهيهم، ليتمثله الناس بجميع شرائحهم.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٧٠.

الغرض من التعبير بـــ "عَسَى" هو إقامة المخاطبين بين الخوف والرجاء، لتتحقق لديهم الإثارة، وتقوى عندهم الدوافع الباعثة إلى امتثال الأمر بالتوبة النصوح، مع المحافظة عليها، يؤازره وضعُ اسم الجلالة "رَبُّكُمْ" موضع الضمير، مع التعبير عنه بعنوان الربوبية، الذي من معانيه التلطف وحسن الرعاية وإصلاح أحوال الخلق(١)، بجانب ما يشعُّ من إضافة ضمير المؤمنين إليه من تشريف وإشعار بالقرب والحنو وغيرها من المعاني التي تناسب القطع.

ب-التعبير عن مغفرة السيئات ومحوها بالتكفير "أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ"، الذي يعني: التغطية، إذ "الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على...الستر والتغطية"(٢)، و به سمي الكافر، لأنه غطّى قلبه كله... وسميت الكفارات بذلك لأنها تكفّر الذنوب، أي: تسترها(٣)، وأوثر التعبير به لما فيه من المبالغة التي تناسب مقام الترغيب، الذي وردت الآية في سياقه، كما أنه يخلع على العبارة نوعا من التصوير لا يوجد في غيره، حيث يبرز معه التائب بشكل جديد، وصورة ناصعة خالية مما يحول بينه وبين دخول الجنة.

يضاف إلى ذلك أنه استعمل هنا جريا على عادة النظم القرآني في التعبير بالتكفير والعفو مع السيئات، والتعبير بالمغفرة مع الذنوب، والسر في ذلك- والله أعلم- أنه لما كانت السيئات أشدَّ من الذنوب وأعظم ناسبها التعبير بالتكفير أو العفو، لما فيهما من قوة في الجرس وسعة في المعنى، تجعل المؤمن مطمئنا إلى محو سيئاته مهما كانت عظيمة، ومحو الآثار

---

(١) المفردات- مادة رب.

(٢) مقاييس اللغة- مادة كفر.

(٣) لسان العرب- مادة كفر.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المترتبة عليها أيضا، ودليل ذلك أن الذي أضيف إلى النبي ﷺ الذنبُ وليس السيئة، حاشاهﷺ أن يرتكب السيئات أو يقترف شيئا منها، قال تعالى "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ"(الفتح ٢)، كما أن إضافة الذنب المغفور إليهﷺ من باب التشريف والتكريم ليس إلا(١).

والتعبير بالمصدر المنسبك من أن والمضارع "أَنْ يُكَفِّرَ" فيه- على ما يبدو لي- دلالة على أن التكفير سيحصل عقب التوبة مباشرة، وإسناد الفعل إلى ضمير الرب جل جلاله فيه إشارة إلى ضرورة الثقة في حصوله، وإشعارٌ بعظمة ذلك الفعل، لأن العطية دائما تكون على قدر المعطي، وذِكْرُ ضمير المخاطبين مجرورا بـــ "عَنْ" المفيد للمجاوزة(٢) مع جمع السيئات "عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ" يشير إلى أن هذه السيئات مع كثرتها، ومع ما فيها من "قبح وإساءة"(٣) تتجاوز التائبين، وتتباعد عنهم تباعدا يُظن معه أنها ليست لهم، ولم تصدر عنهم.

ثالثا- المجئ بقوله "وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" معطوفا على ما قبله بالواو التي تفيد المصاحبة، مع أن المعطوف عليه سبب فيه وأسبق حصولا منه، للإشعار بأن دخول الجنة بعد مغفرة الذنوب حاصل لا محالة، وأنه متى حصل الأول حصل الثاني من غير شك.

---

(١) يبدو لي كذلك أن الدرس البلاغي في حاجة إلى دراسة علمية تُعنَى بالوقوف مع مــواطن التعبيــر القرآني بالذنب والسيئة والخطيئة والإثم، ومواطن التعبير بالعفو والمغفرة والتكفير وما يقوم مقامها، وتبسط القول في أسراره في كل موطن منها.

(٢) الجنى الداني ٤١.

(٣) مقاييس اللغة- مادة سوء.

وإسناد فعل الإدخال إلى ضمير الرب سبحانه وتعالى يدل على أنه إدخال عظيم، فيه من التشريف والتكريم والرحمة ما يليق بالمُدخِل جل جلاله وعظم سلطانه، و"جَنَّاتٍ" جمع مفرده "جنة"، "وهي البستان من النخل والشجر المتكاثف المُظَلَّل بالتفاف أغصانه... والكلمة تدور على معنى الستر، وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التي هي المرة، من مصدر جَنَّهُ إذا ستره، كأنها سترةٌ واحدة لفرط التفافها، وسميت دار الجزاء جنة لما فيها من الجنان"(١)، وفي جمع الجنة وتنكيرها في هذا السياق ما يشير إلى أنها مُرَتَّبَةٌ على حسب استحقاقات التائبين وتفاوت درجاتهم في إحسان التوبة ومدى نصحها، وفيه ما يغري ببلوغ أقصى درجات التوبة النصوح، للفوز بذروة الجنة وأعاليها.

ويبدو لي أن تعبير القرآن عن دار النعيم بالجنة يهدف بصفة عامة إلى أمرين: أولهما- إعلام المخاطبين بأن ما ذكر من نعيم الجنة في أي موضع ما هو إلا شيء يسير، وأن أغلب نعيمها مستور لا يعلمه إلا رب العالمين، ليحدث بذلك نوع من التشويق والإثارة، يترتب عليهما مزيد عمل ومزيد صلاح، والآخر- الإلماح إلى أن لكل فرد من أهلها نعيما خاصا، لن يعرفه أحد غيره، ولن يطلع عليه من البشر سواه، وفيه أيضا من الإثارة والحث على التنافس ما لا يخفى.

وجيء بجملة "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" نعتا لـــ "جَنَّاتٍ" تماشيا مع ما درج عليه القرآن الكريم من ذكر الجنان متبوعة بهذه الصفة، لأن جريان الماء من لوازم النعيم ومتطلباته، والنعيم لا يكمل ولا يعظم إلا به، يقول

(١) الكشاف ١/ ١٠٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

صاحب الكشاف: "فلولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى، وأن الرياض والجنان- وإن كانت آنق شئ وأحسنه- لا تروق النواظر ولا تُبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجرى فيها الماء، وإلا كان الأنس الأعظمُ فائتا، والسرورُ الأوفر مفقودا، وكانت كتماثيلَ لا أرواح لها، وصورٍ لا حياة فيها، ولَمَا جاء الله تعالى بذكر الجنان مشفوعا بذكر الأنهار الجارية من تحتها، مسوقَيْن على قرن واحد، كالشيئين لابد لأحدهما من صاحبه، ولما قدّمه على سائر نعوتها"(١)، وأوثر التعبير بالمضارع "تَجْرِي"، للدلالة على تجدد المياه وعدم ركودها، فأحسنُ الماء ما كان جاريا غير قار، ومن ثم يكون جديدا، كلما شرب منه شاربٌ، أو اغتسل منه مغتسِل.

و"الْأَنْهَارُ" جمع "نَهَر" بفتح الهاء وسكونها، والفتح أفصح، والنهر: الأخدود الجاري فيه الماء على الأرض، وهو مشتق من مادة: نَهَر، الدالة على الانشقاق والاتساع، يقول الراغب: "النهر: السعة... ومنه أنهرت الدم أي: أَسَلْتُه إسالةً، وأنهر الماءُ: جرى، ونَهْرٌ نَهِرٌ: كثير الماء"(٢)، وجيء به جمعا للدلالة على كثرتها وانتشارها في جميع أنحاء الجنان، "وإسناد الفعل "تَجْرِي" إليها مجاز عقلي علاقته المكانية، فيه نوع من التصوير البارع، الذي يرينا سرعة المياه في جريها، والأمواج في تلاحقها، حتى ليخيل إلينا أن الأنهار هي التي تجري، ولو قيل: تجري من تحتها المياه لما كشفت هذه الحقيقة عن سرعة جريان الماء في الأنهار، ولكان أقصى ما يستشف منها مجرد وصف الماء بالجريان"(٣).

---

(١) السابق.

(٢) المفردات- مادة نهر.

(٣) الأسلوب: بناؤه وإيحاؤه- د. عبد الموجود متولي بهنسي ١١٠، ١١١ بتصرف.

رابعا- المجئ بقوله تعالى "يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ" للإشارة إلى اقتران الجزاء الحسي للتوبة النصوح بالجزاء المعنوي المتمثل في التشريف والتكريم والعفو عما يحزن أو يخزي، ولبيان ميقات ذلك النعيم المزدوج، وتوضيح زمن حصوله، لما لوقته من أهميةٍ بالغة وأثرٍ فاعل في نفس المتلقي.

فـ"يَوْمَ" ظرف متعلق بـ "يُدْخِلَكُمْ"، وهو تعليق أتاح الانتقال إلى الثناء على الرسولﷺ والمؤمنين معه، والمقصود به: يوم القيامة، أما "الخِزْيُ" فقد تعددت فيه أقوال العلماء، حيث قال بعضهم: الخزي معناه: عذاب النار، وقيل: الانكسار مع الافتضاح، وقيل: معناه الإبعاد(١)، والقولان الأخيران متقاربان، ولا يختلفان اختلافا جوهريا، ويمكن أن يكون كل واحد منهما صورة من صور الخزي وشكلا من أشكاله، أما عذاب النار فهو مختلف عن الخزي ومغاير له من وجهة نظري، والله أعلم.

وجملة "لَا يُخْزِي..." في محل جر بسبب إضافتها إلى "يَوْمَ"، وهي إضافة يُفهم منها- بطريق المخالفة- أن الخزي صفة من صفات يوم القيامة وسمة من سماته، ومن ثم فإن نفيه عن النبيﷺ وعن المؤمنين- في هذا اليوم تحديدا- يعد مظهرَ تكريم وتشريف وتطمين وسعادة، كما يعد نوعا من أنواع النعيم المعنوي، يضاف إلى النعيم الحسي الذي سبق وعد التائبين به، بجانب ما فيه من تعريض بغير المؤمنين وغير التائبين وإلماح إلى أن الله تعالى سيخزيهم ويباعدهم فيه، فيحصل لهم نوعان من العذاب،

(١) ينظر: المفردات- مادة خزى، البحر المحيط ٧/ ٤٠٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أحدهما حسي والآخر معنوي، فيبلغ عذابهم- في هذا اليوم- ذروته، كما يبلغ نعيم المؤمنين التائبين- فيه- قمته.

وفي نفي المضارع "يُخْزِي" بالحرف "لَا" إشارة إلى أن الخزي بجميع أشكاله منفي عن النبيﷺ وعن المؤمنين (ويدخل فيهم التائبون من التقصير في حق النفس والأهل دخولا أوليا) نفيا يمتد امتداد الصوت في الألف الذي ختم به حرف النفي، وفي ذلك ضرب من التناغم بين المعنى والجرس الصوتي للحرف، وهو كثير في كتاب الله العزيز، ويعد لونا من ألوان بلاغته وإعجازه، وتعدية فعل الخزي المنفي إلى "النَّبِيَّ" بعد إسناده إلى اسم الجلالة العلم "اللَّهُ" فيه- بجانب التشريف والتكريم- إلماح إلى ضرورة التأدب معهﷺ، والتأسي بمعاملته من قبل ربه عزوجل، واختصاصه له بالرفعة والتوقير.

وبين العلماء خلاف حول الواو في قوله "وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ"، إذ يرى بعضهم أنها للعطف، بينما يرى بعض آخر أنها للاستئناف، وأن ما بعدها مبتدأ خبره "مَعَهُ"، وهناك من يرى أن خبره هو "نُورُهُمْ..." وثم من يرى غير ذلك(١)، والذي يظهر لي أن القول بكونها عاطفةً أنسبُ لسياق السورة وموضوعها الداعي إلى توقيرالنبيﷺ والتأدب معه بالسمع والطاعة وعدم التظاهر أو المكايدة، وأن في إيثار التعبير بالاسم الموصول ضربا من السعة والعموم المشير إلى شمول الصلة كلَّ من آمن بالنبيﷺ والتزم توقيره ممن عايشوه أو جاءوا بعده، وأن التعبير بلفظ المعية إلماح إلى ضرورة أن يكون الإيمان به والتوقير له حاصلين ممن ليسوا معه بذات الصفة التي تحصل

(١) ينظر: البحر المحيط ١٠/ ٢٤١، روح المعاني ٢٨/ ٤٧٦.

ممن هم في معيته، حتى يتأهل الجميع لشرف صحبته في الجنة، وشرف عدم الخزي من الله تعالى بأية صورة من الصور، وأي شكل من الأشكال.

خامسا- الإتيان بجملة "تُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ..." منفصلة عما قبلها، لكمال الاتصال، الذي تتواصل فيه الجمل تواصلا قويا من حيث المعنى، يغنيها عن التواصل اللفظي، ذلك أن جملة "تُورُهُمْ..." يمكن أن تكون تأكيدا لنفي الخزي عن النبيﷺ والذين آمنوا معه، أو بيانا لكيفية انتفائه وعدم حصوله.

والضمير في "تُورُهُمْ" عائد إلى النبيﷺ والمؤمنين، وفي إضافته إلى "تُور" ما يشعر بأن لهم نورا خاصا بهم، يُعرفون من خلاله، ويمتازون به بين الخلائق يوم القيامة، "وسعيُ النور معناه: امتداده وانتشاره"(١)، من سعى يسعى، وهو "في الأصل: المشي السريع... ويستعمل للجد في الأمر خيرا كان أو شرا"(٢)، وفي التعبير به عن انتشار النور وامتداده استعار تصريحية، تُبرز قوة ذلك النور وشدة ضوئه، كما أنها تصور حركته معهم ومرافقته لهم وقتما تحركوا، وأينما أقاموا، تنويها بشأنهم، وتعظيما لقدرهم، تماما كما تُنْشَر الأعلامُ بين يدي الأمير أو القائد، وكما تُساق الجياد بين يدي الخليفة، وفي التعبير بالمضارع دلالة على تجدد تلك الحركة واستمرارها من غير توقف أو انقطاع.

ووجه تخصيص جهتي الأمام واليمين بانتشار النور وامتداده "بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ": أن النور إذا كان أمامهم تمتعوا بمشاهدته، وشعروا بأن فيه كرامةً لهم ورفعة لشأنهم، ولأن من سماتهم ألا يتراجعوا إلى الخلف،

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٧١.
(٢) المفردات- مادة سعى.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وألا ينظروا وراءهم، أما كونه عن أيمانهم فلأنهم من السابقين أو من أهل اليمين الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ولا يلتفتون شمائلهم أبدا، وأوثر التعبير بدون حرف الجر "مِن" للإشارة إلى أن النور يملأ الجهتين المذكورتين على وجه التمام والكمال من غير نقص أو تبعيض.

سادسا- وجملة "يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا..." حال من الضمير في "نُورُهُمْ"، وهي تبين أن الرسولﷺ والذين آمنوا معه "لا يسقط عنهم الافتقار إلى الله تعالى في الدنيا ولا في الآخرة، بل هم في الآخرة أشد افتقارا إليه، وإن كانوا في دار العز لشوقهم إلى استمرار لقائه"(١)، وأن مظهر هذا الافتقار هو الدعاء بإتمام النور والمغفرة من رب العالمين، والتعبير بالمضارع يدل على تجدد ضراعتهم بهذا الدعاء، "لعلمهم بأن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء، ولا حق لأحد عليه، لا سيما إذا رأوا انطفاء نور المنافقين"(٢).

وفي ضراعتهم آثروا نداء المولى سبحانه وتعالى بوصف الربوبية المضاف إلى ضميرهم "رَبَّنَا" للإشعار بشدة افتقارهم، وعظم حاجتهم إلى تفضله وامتنانه، وعدم استغنائهم عن نعمه وعطاياه التي يسبغها عليهم في الدنيا والآخرة، وفيه أيضا دلالة على ثقتهم فيه سبحانه، وحسن ظنهم به، ويقينهم بعدم خذلانه لهم، لما يشع من اسم "رَبَّنَا" من معاني الرعاية والحماية وقضاء الحاجات، كما سبق ذكره، بجانب ما في حذف حرف النداء من شعور بالقرب الشديد الذي يستوجب إسقاطه.

---

(١) نظم الدرر ٨/ ٥٥.

(٢) السابق.

وقولهم "أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا..." أسلوب أمر غرضه التضرع والابتهال بإدامة النور أو الزيادة عليه، لأن إدامة الإنعام هي أشرف صفات العبد ودليل شعوره بالأمان، والسلب بعد العطاء من أقسى الأشياء، وأشد أنواع العقاب، لكونه يجمع بين عقوبيتن، إحداهما حسية والأخرى معنوية، بجانب ما فيه من قطع الرجاء.

وفي تكرار ضمير المتكلمين ثلاث مرات- أولاها مجرورا بالحرف في "لَنَا"، والثانية مجرورا بالإضافة في "نُورَنَا"، والثالثة في قولهم "وَاغْفِرْ لَنَا"- تأكيدٌ لشدة الحاجة إلى تحقيق ما يدعون به من مغفرة الذنوب وزيادة النور، وعدم حرمانهم من أيهما، لكونهم يعلمون من أنفسهم ما لا يعلمه إلا الله تعالى عنهم.

ووجه تقديم الدعاء بإدامة النور على طلب المغفرة مع أن الثاني سبب في الأول هو مناسبة ذلك لمقام الطمع والسعادة الذي هم فيه، كما أن تأخيره وعدم الاكتفاء بطلب إتمام النور يأتي نفيا لما قد يُظن أنه غرورٌ ودعاءٌ بما يرونه حقا لهم، لا تفضلا من الله تعالى عليهم، وفيه من حسن أدبهم وتواضعهم ما يسترعي الانتباه، وحُذف مفعول فعل المغفرة ليعم طلبهم لها كل نقص يميل بهم عن جزاء المؤمنين، ويقربهم إلى المنافقين أو غيرهم.

وقولهم "إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" تذييل يؤكد ثقتهم في رحمة ربهم وقدرته على تحقيق ما يبتهلون به في هذا الموقف المهيب، كما أنه يبرهن على مشاعر الفرح والسعادة التي تتملكهم، والتي يرغبون في استمرارها وعدم انقطاعها، ومن ثم جاء هذا التذييل على صورة تركيبية مملوءة بأساليب الإثارة والتهييج إلى تحقيق ما يتضرعون به، ومنها:

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

- فصل جملة التذييل عما قبلها، لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء، فيما يعرف بكمال الانقطاع، مع تصديرها بالحرف "إنّ" الذي "يربط بين الجملتين برباط وثيق، لا يتحقق بغيره من الحروف... حيث ترى الكلام به مستأنفا غير مستأنف، مقطوعا موصولا معا"(١)، بجانب ما يفيده من تأكيد المعنى والإشعار برسوخ مضمونه في عقيدة الداعيين.

- تنكير الاسم المجرور "شَيْءٍ" مع إضافته إلى "كُلِّ" المجرور بالحرف الدال على التمكن "عَلَى" للدلالة على ثقتهم في قدرة الله تعالى وتمكنه التام من تحقيق ما يطلبون مهما كان عظيما، ليقينهم بقدرته على تحقيق كل شيء.

- تأخير الخبر والتعبير عنه بصيغة المبالغة "قَدِيرٌ" للإلماح إلى طلاقة القدرة الإلهية، وسيطرتها على كل شيء، مما يجعل أملهم في إجابة الدعاء بالمغفرة وزيادة النور واصلا إلى حد اليقين الذي لا شك فيه، ولا قلق معه.

(١) دلائل الإعجاز/ ٢٧٣ وما بعدها.

المعقد الرابع

من أسرار الإبانة عن مهام الزوج وأعماله

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"(التحريم ٩).

علاقة الآية بالسياق:

يقول البقاعي- رحمه الله- "لمّا ذكر ما تقدم من لينهﷺ لأضعف الناس... لأنه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم، وختم بما للمؤمنين من الشرف، ولله من تمام القدرة، أنتج ذلك القطع بإذلال أعدائهم وإخزائهم، فقال منبها لهم إلى خطر ذلك اليوم بيد أنصح الخلق؛ ليكونﷺ جامعا في طاعته سبحانه وتعالى بين المتضادات من اللين والشدة والرضى والغضب والحلم والانتقام وغيرها، فيكون ذلك أدل على التعبد لله بما أمر به سبحانه وتعالى والتخلق بأوامره وكل ما يرضيه"(١).

والذي أراه متسقا مع سياق الآية وموضوع السورة: أنه لما كان من مقاصد سورة "التحريم" الدعوةُ إلى الأدب مع رسول اللهﷺ، ويدخل فيه مساعدته للقيام بأعباء الرسالة وأعمال النبوة، اتجه النظم الحكيم ـــ بعد توجيه المؤمنين إلى ضرورة الاهتمام ببيوتهم، والعمل على وقاية أفرادها من النار، ووعْدِ من أحسن في ذلك بالفلاح وعدم الخزي يوم القيامة ـــ إلى ذكر ما كُلِّف به الرسولُﷺ، من جهاد الكافرين والمنافقين، ليلفت النظر إلي أحد مهامه، وبعض أعماله، التي ينبغي أن يعينه عليها نساؤه وأهل بيته بالدرجة الأولى، لأنه من الأعمال الشاقة التي يقوم بها هو والمؤمنون معه؛ من أجل المحافظة على البيئة الإسلامية من الداخل ضد المنافقين، ومن

---

(١) نظم الدرر ٨/ ٥٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الخارج ضد الكافرين، ومن ثم فلا ينبغي شغلهم أو صرفهم عن مثل هذا العمل العظيم، بتدبير المؤامرات والمكائد التي تلقى بظلالها على الرجال، الذين يجاهدون في سبيل حماية الأمة من كيد المنافقين والكفار، مما يعني أن هذه الآية تبين لنساء النبيﷺ بخاصة ولنساء المؤمنين بعامة- بجانب ما ذكره البقاعي- شيئا من أعمال أزواجهم، التي تستلزم مساعدتهم ومظاهرتهم، لا التظاهر ضدهم.

مزايا النظم وأسراره:

وبدأ النظم الحكيم هذا التكليف بتوجيه نداء إلى النبيﷺ للإيحاء بأهمية ما يأتي بعده وخطورته، والتنبيه إلى ضرورة القيام به، لأنه لا اختيار له فيه، إذ هو تكليف له وللمؤمنين معه من الله العزيز الحميد، ثم اختار الفعلَ "جَاهِدِ" دون: قاتل، للإشعار بصعوبة هذا العمل وتشعبه، واتساع طرائقه وتنوعها، وأنه لا يقتصر على القتال أو ينحصر فيه، بل له صور متنوعة ووسائل متعددة، "فالجهاد يعنى: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة، وهو يقتضى استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والمجاهدة تكون باليد واللسان، قالﷺ:"جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم"(١).

وفي التعبير بصيغة المفاعلة؛ إشارة إلى أنه سيلقى من مقاومة الفريقين وعنادهم وكيدهم القدرَ المساويَ لما يبذله وما يقوم به، مما يعني مضاعفة الجهد الذهني والجهد البدني، ومن ثم يجب على النساء مراعاة ما يسببه عمل الرجال بصفة عامة، وجهاد الكافرين والمنافقين بصفة خاصة من إجهاد في هذين المجالين، وفيه- بطريق المخالفة- إيماض إلى عدم

(١) المفردات- مادة جهد، والحديث أخرجه النسائي في سننه- كتاب الجهاد- باب وجوب الجهاد.

شغل الرجال في مثل هذه الأحوال عن التفكير و التدبير من أجل صد كيد الكافرين والمنافقين الذي لا ينقطع ولا يتوقف.

وبدأ بـــ"الْكُفَّارَ" لأن جهادهم من الأمور المسلم بها، وعطف عليهم "الْمُنَافِقِينَ" بالواو التي تفيد المصاحبة للإلماح إلى أن جهادهم ووقاية المؤمنين من شرورهم لا يقل أهمية عن جهاد الكافرين، فهؤلاء يهاجمون المؤمنين من الداخل، وأولئك يهاجمونهم من الخارج، وكلاهما يؤدي دورا مماثلا في تهديد الأمة وزعزعة استقرارها، ويرى غير واحد أن السر في عطف "الْمُنَافِقِينَ" على "الْكُفَّارَ" وإلحاقهم بهم في الحكم- مع أنهم يعلنون الإسلام- هو: "إلقاء الرعب في قلوبهم، ليشعروا بأن النبيﷺ والمؤمنين لهم بالمرصاد، فلو بدرت من أحدهم بادرة يُعلم منها نفاقُه، عومل معاملة الكافرين... فيحذروا ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الافتضاح"(١)، وأيّمّا كان السر فإن الأمر بجهاد الفريقين هنا له فائدتان بلاغيتان: أولاهما- تنبيه النبي بخاصة والمؤمنين بعامة إلى الانشغال بما هو أهم من تظاهر النسوة وكيدهن، والأخرى- ما سبق ذكره، وهو إعلام النساء ببعض مهام الرجال التي تقتضي مظاهرتهم، لا التظاهر عليهم.

ومما يؤازر ما سبق ويقويه أن عَطَفَ النظم القرآني على الأمر بجهادهم أمرًا آخر، فقال: "وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ" والغلظة حقيقتها: صلابة في الشئ، وهي هنا مستعارة للمعاملة الشديدة بدون عفو أو تسامح، وتعدية فعلها إلى ضمير الكافرين والمنافقين بحرف الجر المفيد للاستعلاء "عَلَيْهِمْ" تقوية للاستعارة بتحويلها من شيء معنوي إلى شيء حسي يتمكن منهم تمكن الراكب من حصانه، وفيه توجيه إلى ضرورة أن تكون الغلظة قوية

(١) يراجع: البحر المحيط ٥/ ٥٢٨- والنص من التحرير والتنوير ٣٧٢/٢٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

شديدة لدرجة تجعل شعورهم بها رادعا لهم عن التفكير في تهديد المسلمين أو إيذائهم.

والفعل "اغْلُظْ" لم يؤمر به النبيﷺ إلا مع الكافرين والمنافقين هنا وفي سورة التوبة(١)، وذكْرُه معطوفا على الأمر بالجهاد من باب عطف الخاص على العام، اهتماما بهذا الخاص وتأكيدا له، لاسيما إذا كان يخالف طبيعة النبيﷺ الذي فطر على الرحمة واللين، قال تعالى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" (آل عمران ١٥٩)، والأمر به في سياق هذه السورة يضيف إلى ما سبق ذكره بعدا جديدا يفرض على النساء مراعاته بالمساعدة والمعاونة والتخفيف، والابتعاد عما يزيد الأعباء والهموم(٢).

وجيء بقوله "وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" لزيادة الترغيب في جهادهم والغلظة عليهم، حيث عبر في أوله بالواو الاستئنافية للتنبيه إلى أهمية ما تتضمنه الجملة من معان مفيدة في سياق الأمر بجهاد الكافرين والمنافقين والشدة عليهم، وعبر في جملة "مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ" بأسلوب القصر الدال على أنه لا مأوى لهم يوم القيامة، ولا مسكن لهم يوم الدين إلا في جهنم، ثم عطف عليها جملة الذم "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" ليكنّي بها عن ذلهم وحقارة شأنهم عند ربهم، وذلك من أجل قطع الأمل في إسلامهم، والطمع في إيمانهم، لكون هذا الاحتمال يستلزم الملاينة والملاطفة المنافيين للجهاد المصحوب بالغلظة والشدة.

---

(١) الآية ٧٣، والتي جاء فيها الأمر بجهاد الكفار والمنافقين بما جاء عليه النظم في سورة التحريم.

(٢) أما الأمر به في سياق سورة التوبة، فقد كان ضروريا بعد أن فضحت السورة أعمالهم، وكشفت مؤامراتهم الداخلية والخارجية، التي تهدف إلى الكيد للأمة الإسلامية، وتهديد كيانها الذي كان قيد التشكيل.

خاتمة السورة

من أسرار التمثيل والمقابلة

بين امرأتي نوح ولوط وامرأة فرعون ومريم ابنة عمران

"ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ" (التحريم ١٠-١٢).

علاقة الآيات بالسياق:

يأتي المثلان المضروبان في المعقد الأخير من هذه السورة متوافقين مع الغرض الذي تُعنى بترسيخه في بيوت النبي ﷺ بخاصة، وفي بيوت المؤمنين بعامة، فبعد البيان عن بعض مهام الرجال التي تستلزم معاونتهم ومظاهرتهم، يضرب النظم الحكيم المثل بامرأتين كافرتين في بيتي اثنين من أنبياء الله تعالى، وامرأتين مؤمنتين في وسط كفار، الأوليان خانتا الأمانة التي يتوجب عليهما القيام بها، وخالفتا زوجيهما الصالحين، وتظاهرتا مع الكفار عليهما، والأخريان حافظتا على إيمانهما وجاهدتا في سبيل التمسك به والعمل له، على الرغم من المصاعب التي كانت تواجه كل واحدة منهما، "وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة، يضربهما اللّه لأزواج النبيﷺ بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر السورة، ويضربهما للمؤمنات من بعد في كل جيل"[1]، وبهما تختم السورة الكريمة.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٢٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مزايا النظم وأسراره:

اعتمد النظم الحكيم في تحقيق الغرض المقصود من هذا المعقد على فنين بلاغيين، لهما أثر كبير في الإيضاح والبيان، وشحذ عقول المخاطبين إلى التقاط الهدف من التعبير، وإحالته إلى واقعٍ تحيا به النفوس، وتعيش في ظلاله القلوب، وتتغير به السلوكيات، وهما: التمثيل والمقابلة.

حيث "مثّل اللّه عز وجل حال الكفار(الذين بينهم وبين المؤمنين صلة)- في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم(ممن لا صلة بينهم وبين المؤمنين) من غير محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر...- بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لمّا نافقتا وخانتا الرسولين، لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء مّا من عذاب اللّه، وَقِيلَ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ادْخُلَا النَّارَ مَعَ سائر الدَّاخِلِينَ الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط، ومثّل حالَ المؤمنين- في أنّ صلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند اللّه- بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند اللّه تعالى، مع كونها زوجة أعدى أعداء اللّه الناطق بالكلمة العظمى، ومريمِ ابنةِ عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أنّ قومَها كانوا كفارا"(١)، وبهذين المثلين تتضح الصورة لدى المتلقي وضوحا يترك أثره في النفوس، ويعمل عمله بالقلوب، لما للتمثيل من مزية أشار إليها الإمام عبدالقاهر الجرجاني في قوله: "فالتمثيل إذا جاء في أعقاب

(١) الكشاف ٤/ ٥٧١.

المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس، ودعا القلوب إليها، واستثار لها أقاصي الأفئدة صبابا وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا"(١).

واعتمد النظم الحكيم في عرض المَثَلَيْن المضروبين على أسلوب المقابلة، الذي يكثر استعماله في مثل هذا المقام، لما يمتاز به من قدرة على عرض الأشياء المتناقضة في صورة تجذب المتلقي إليها، وتدفعه نحو التفكير المفضي إلى التمييز بينها، ما يترتب عليه اقتناعه بامتثال الحق والعزوف عن الباطل، أو العزم على فعل الحسن الجميل، والبعد عن القبيح المشين، وهي مقابلة تتسم بما يلي:

أولا- أنها ارتكزت على التقابل بين الكفر والإيمان، مع أن ما حدث في بيت النبوة كان مجرد تظاهرة ناتجة عن اجتهادٍ خاطيء وتدبيرٍ فيه نوع من السذاجة التي لا تصل إلى درجة الكفر الذي كان عليه امرأتا نوح ولوط، والغرض من ذلك تقبيحُ العمل الذي قامتا به، وتخويفُ من فعلتاه وسائرِ أمهات المؤمنين، من أن يكون مصيرُهن مصيرَ هاتين المرأتين، وإعلامٌ بأن قرابتهن من رسول اللهﷺ لن تغني عنهن في الآخرة شيئا إذا صدر منهن مثل هذه الأفعال مرة ثانية، وبذا يستقمن على طاعته، ويتنافسن في مظاهرته ومساندته للقيام بأمور دعوته، فيلحقن بامرأة فرعون، ومريمِ ابنةِ عمران، ويجمعن بين خيري الدنيا والآخرة.

(١) أسرار البلاغة- ١١٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثانيا- أنها بدأت بذكر الكافرتين، لما في ذكرهما أولا من مناسبة لسياق ما وقع في بيت النبوة من أحداث، ولما فيه كذلك من التشويق والإثارة إلى معرفة ما قامت به كل واحدة من المؤمنتين، حتى إذا ورد ثبت في نفس المتلقي، وتمكن منها فضل تمكن، واتضح بعد وروده الفارقُ الشاسع بينه وبين ما ذكر أولا.

ثالثا- أنها تحدثت عن كل واحد من الطرفين بجمل مطابقة لما يقابلها في المعنى دون اللفظ، لما يقوم به هذا النوع التقابلي من الإيضاح والبيان مع الاحتفاظ لكل طرف بما يخصه، من غير تقيد بالألفاظ المتضادة، التي قد لا تحقق الغرض المقصود من البيان والتعبير هنا.

رابعا- أنها عبرت عن إلقاء المثل وإيراده بالفعل "ضَرَبَ"- الدال بمادته وجرسه على القوة والشدة- مع إسناده إلى اسم الجلالة العلم "اللَّهُ"، الذي يستعمل في مقام التأليه والتعظيم، وتنكير المفعول "مَثَلًا" المفيد للتعظيم، لما يحدثه اجتماعُ هذه الأساليب في نفس المخاطب من تلقّي هذين المثلين بالإجلال المصحوب بالتفكر والتدبر والنظر في موقعه منهما، ما يترتب عليه التراجعُ والتصحيحُ إن كان حاله قريبا من حال الكافرين، والفرحُ والثباتُ إن كان حاله على شاكلة المؤمنين.

خامسا- في تعدية الفعل "ضَرَبَ" إلى الطرفين بحرف اللام المفيد للتعليل- " لِلَّذِينَ كَفَرُوا"،" لِلَّذِينَ آمَنُوا"- نوع من التعميم الذي يترتب عليه شمولُ المثل الأول جميعَ الكافرين، وشمولُ المثل الثاني جميعَ المؤمنين، ولا يخفى ما فيه من التكريم والتشريف لنساء النبي[١] بخاصة، ولكل المخطئات والمخطئين

(١) الكشاف ٤/ ٥٧٣.

بعامة، كما أنه أدعى إلى قبول النصيحة، لخُلوّها من عنصر التشنيع والفضيحة.

سادسا- أنها عبرت عن ثلاث من النساء المضروب بهن المثلُ بلفظ "امْرَأَت" دون "زوج"- مع أن الأوليين كانتا متزوجتين من اثنين من أنبياء الله، هما نوح ولوط عليهما السلام، أما الثالثة فكانت متزوجة من فرعون- جريا على عادة النظم الحكيم في إيثار هذه الكلمة عندما تفقد الحياة الزوجية بعض مقوماتها، أو كلّ مقوماتها، إذ يقف الكفر هنا حائلا دون كون الحياة بين رسولي الله وامرأتيهما، وبين امرأة فرعون وزوجها على النحو المثالي، "ولعل السر البياني... في ضن القرآن بكلمة "زوج" في المقامات التي تكون الحياة الزوجية فيها قليلةَ الإثمار أن الكلمة نفسَها تدل على "الزوجية"، فالمرأة ما سميت زوجا إلا مضافا إليها الرجل، وما سمي الرجل زوجا إلا مضافة إليه هي، ودبيب الخلاف ينافي هذا الاعتبار، أما "امرأة" فهي خالية من تلك الدلالة، إذ هي إطلاق عليها باعتبار حقيقتها المقابلة لحقيقة الرجل"[١].

بينما ذكرت المرأةَ الرابعةَ باسمها "مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ"، لأنها لم تتزوج من أحد، وفيه كذلك تشريف لها، وإبقاء لذكرها، وإعظام لما قامت به، حيث لم يذكر القرآن الكريم أحدا من النساء باسمه في أكثر من موضع غيرَها[٢]،

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبدالعظيم المطعني ١/ ٣٩٦- مكتبة وهبة.

(٢) ورد ذكر السيدة مريم- عليها السلام- في القرآن الكريم إحدى ثلاثين مرة، في ستة وعشرين موضعا، وهذه المواضع تصلح لأن يتناولها أحد الباحثين بالدرس البلاغي والتحليل الأسلوبي.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وبذا جمع الله سبحانه وتعالى لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفاها على نساء العالمين، مع كونها بين قوم كافرين"(١).

ومما يسترعي الانتباه كتابة كلمتي"امْرَأَتَ" و"ابْنَتَ" بالتاء المفتوحة دون المربوطة، ويبدو لي أن السر في ذلك هو الإلماح إلى أن النساء الأربع مختلفاتٌ عن غيرهن، ومغايراتٌ لما درج جميعُ النسوة على القيام به، فالأوليان مختلفتان؛ لأنهما كفرتا بالله عزوجل على الرغم من زواجهما من نبيين من أنبيائه، ليس ذلك فحسب، بل ناصبتا زوجيهما الصالحين العداء، وهو أمر في منتهى الغرابة والاختلاف، والثالثة مختلفة؛ لأنها زهدت في الدنيا، ورفضت مظاهرها الخادعة، وآثرت عليها الآخرة الباقية، ولم تستمع إلى إغراءات زوجها، ولم تخف من تهديداته، وهذه أمور غير معهودة في النساء، والرابعة مختلفة؛ لأنها تحمّلت ما لا تتحمله أنثى، عندما ولدت من غير رجل، وقامت بما يقوم به الرجالُ في العبادة والضراعة، كما سيأتي مزيد من بيانه.

سابعا- أنها عبرت عن رسولي الله: نوح ولوط- عليهما السلام- بوصف "عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ" دون "نبيين" للإشارة إلى أن صلاح الرجلين كان فرصة عظيمة لصلاح امرأتيهما، بجانب ما فيه من "التنويه بوصف الصلاح، والإيماء إلى أن النبوة صلاح عظيم... ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن، فإن وصف النبوة قد انتهى بالنسبة للأمة الإسلامية، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين، وعناية ربهم بهم، ومدافعته عنهم"(٢).

(١) يراجع: فتح القدير ٧/ ٢٦٠، التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٣٨.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٣٦- بتصرف.

ثامنا- تعبيرها عن كُفر امرأتي نوح ولوط بلفظ "فَخَانَتَاهُمَا"، تقبيحا لما قامتا به من الميل إلى الكافرين، ومظاهرتهم ومساندتهم ضد ما يقوم به زوجاهما من أعمال الرسالة، حيث كانت الأولى تصف زوجها بالجنون، أما الثانية فكانت تَدُل قومها على أضياف زوجها، مع مقابلة ذلك بذكر أعظم أعمال المرأتين المؤمنتين، كل واحدة على حدها، "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ"، لما في تفصيل الأعمال من تلميح إلى الرضا عنها، والمفاخرة بها، والدعوة إلى الاقتداء بهما فيما قامتا به على الرغم من ضعفهما، ووجودهما في بيئة بعيدة كل البعد عن بيئة يكون الزوج فيها نبيا من أنبياء الله، أو رسولا ختم الله تعالى به أنبياءه ورسله، يقول ابن القيم: "ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة"(١).

تاسعا- أنها رتبت- بفاء السببية- على خيانة الكافرتين لزوجيهما الصالحين أمرين: أحدهما- "فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"، والآخر- "وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ" لتجمع عليهما نوعين من العقوبة: أولاهما- نفسية، وهي تتمثل في تخلي الرجلين عنهما، والتبرؤ منهما ومن كفرهما، في وقت هما أحوج ما يكون فيه إليهما، والأخرى- تجمع بين الحسية والنفسية، حيث يتمثل الجانب الحسي منها في دخولهما النار، بينما يتمثل الجانب النفسي المؤلم أيضا في صحبتهما الكافرين، الذين عبر عنهم الذكر الحكيم

(١) الأمثال في القرآن- ابن قيم الجوزية- تحقيق أبوحذيفة إبراهيم محمد ٥٧- مكتبة الصحابة بطنطا.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بكلمة "الدَّاخِلِينَ" الموحية بالتحقير والحرمان من الشرف العظيم، المتمثل في معية الأنبياء الصالحين.

بينما اكتفت بذكر أعمال الصالحتين وابتهال أولاهما إلى الله تعالى أن يبني لها عنده بيتا في الجنة "رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ..." من غير تصريح بجزائهما، لأمرين: أولهما- أن قصد الذكر الحكيم هنا هو بيان أعمال هاتين المرأتين، اللتين تعدان نموذجا "للتجرد والاستعلاء على عرض الحياة الدنيا وزخارفها في أزهى صوره، ومن ثم استحقتا هذه الإشارة في كتاب اللّه الخالد، الذي تتردد كلماته في جنبات الكون، وهي تتنزل من الملأ الأعلى"(١)، ليقتدي بهما غيرهما من النسوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والآخر- أن دخولهما الجنة أمر بدهي، لا يحتاج إلى التصريح، لا سيما بعد ذكر أعمالهما على سبيل التشريف والمفاخرة.

ويمكن أن يكون السر في عدم التصريح بالجزاء كونَه مفهوما من منطوق الآية السابقة، فتكون الآية من الاحتباك(٢)، إذ التقدير: كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين، فخانتاهما، ولم تسألا الجنة، وامرأة فرعون كانت تحت كافر، ومع ذلك قالت...، فحذف من الأول "فلم تسألا الجنة" لدلالة "رَبِّ ابْنِ لِي..." عليه، وحذف من الثاني "كانت تحت كافر"، لدلالة الأول عليه، وفيه تأكيدٌ لما كانت عليه الأوليان من إدبار عن الآخرة وإقبال على الدنيا، على الرغم من وجودهما تحت عبدين صالحين، وكذلك تأكيدُ ما كانت

(١) في ظلال القرآن / ٣٦٢١- بتصرف.

(٢) الاحتباك معناه: أن تحذف من الأول ما أُثبت نظيره في الثاني، وتحذف من الثاني ما أُثبت نظيره في الأول. الإتقان في علوم القرآن- جلال الدين السيوطي ١٦٤/٢- الطبعة الرابعة - ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م - مطبعة الحلبي- مصر.

عليه امرأة فرعون، من إقبال على الآخرة وإعراض عن الدنيا بكل زخارفها، على الرغم من وجودها تحت أعدى أعداء الله.

*****

ومن اللافت للنظر في ضراعة امرأة فرعون "إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" نداؤها الله سبحانه وتعالى من غير أداة، لما يُشْعِر به حذفها من قرب المنادَي، وشدة احتياج الداعي إليه، وعظم إقباله عليه، وغير ذلك مما يغني عن ذكر الأداة، التي قد يحول إيرادها دون هذه الإشارات في مقام الدعاء والابتهال، كما أنه من سنن القرآن في الدعاء بـــ "رَبِّ".

واصطفاؤها اسم"الرَّب" ليُنادَي، له دلالته علي ثقتها في إجابة دعائها، لما يشع منه من معاني الرعاية وقضاء المصالح والحماية من الطغاة والظالمين، وفي إضافته إلي ضميرها إشارة إلي إعلانها أنه ليس لها مَن يرعاها ويحقق دعاءها غيرُه سبحانه، وفيه من الاستعطاف ما لا يخفى.

كما يلفت النظر تقديمُها الضراعةَ ببناء بيت لها- مع حرصها على تحديد مكان ذلك البيت في قولها "عِنْدَكَ"و"فِي الْجَنَّةِ"- على دعائها بالإنجاء مما تتعرض له في قصر فرعون "وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"، وكأني بها قد استهانت بذلك كله، ورضيت به وعزمت على تحمله في سبيل أن تتحقق ضراعتُها الأولى، لما فيها من الشرف الذي تهون في سبيله جميع ألوان الأذى وصنوفِه، و"إن قلتَ: ما معنى الجمع بين"عِنْدَكَ"و"فِي الْجَنَّةِ"؟ قلتُ: طلبت القرب من رحمة اللّه والبعد من عذاب أعدائه، ثم بينت مكان القرب بقولها "فِي الْجَنَّةِ"، أو أرادت ارتفاع الدرجة في

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش، وهي جنات المأوى، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها "عِنْدَكَ"(١).

وفي تنكيرها "بَيْتًا" وتأخيره عن الظرف "عِنْدَكَ" إشارة إلى أن ما يشغلها هو مكان البيت (العندية)، وليس شكلَه أو حجمَه، فهي تحب أن تكون عند ربها، في أي بيت يبنيه لها، فالمعنى: "سهل لي فيها مقرا"(٢)، وبذا يتضح إيثارها ما عند ربها- أيا كان- على ما عند فرعون من قصور وأموال وغيرها من مظاهر الملك وأبهة الدنيا الكاذبة الزائلة.

وفي ضراعتها بطلب الإنجاء من زوجها وأعماله التي تنطق بالكفر والطغيان "وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ" إشارةٌ موحيةٌ، تتوافق مع السياق التنزيلي للسورة الكريمة، لأنها تثير أزواج النبي ﷺ بخاصة وأزواج المؤمنين بعامة إلى أن يحمَدن الله تعالى على نعمة الإيمان والصلاح التي منّ الله تعالى بها على أزواجهن، والتي يعود- بالضرورة- أثرُها عليهن في القيام بتكاليفهن الشرعية ومعاملتهن المعاملة الطيبة، وأن ذلك- في حد ذاته- كفيل بحسن تبعلهم، ومساندتهم ومظاهرتهم في جميع الأعمال، لا سيما ما يتصل منها بأعمال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

أما عطفها طلبَ الإنجاء من القوم الظالمين "وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" على طلبها الإنجاء من فرعون ففيه إشارة إلى ما كانت تعانيه من ضغوطات صادرة من جميع المحيطين بها، كما أنها تبرز حالة الوحدة التي كانت تعاني منها، وأنها لا تجد من يعاونها على الخير، ويشد من أزرها في سبيله، وهي أيضا إشارة موحية في السياق التنزيلي، لأنها ترسم

(١) الكشاف ٤/ ٥٧٣.
(٢) المفردات- مادة بيت.

لمتظاهرات بيت النبوة تلك الصورة الانفرادية لامرأة ضعيفة كانت تبحث عمن يظاهرها على الخير، في بيئة مملوءة بالشر، بينما هنّ يتعاونّ على الشر في بيئة مملوءة بالخير.

*****

ومن اللافت للنظر أيضا في بيان السورة عن مريم ابنة عمران "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ" اصطفاؤه اثنين من أعمالها، هما: إحصانُ الفرج، وكونُها من القانتين، ولعل السر في ذلك الاختيار أنهما فوق طاقة النساء، وفوق ضعفهن الذي جُبلن عليه، كما أن أولهما يحمل- بجانب التشريف- دليلَ البراءة والطهر والعفة التي ظلت محتفظة بها إلى أن لقيت ربها، والثاني يلفت نظر نساء بيت النبوة بخاصة ونساء المؤمنين بعامة إلى ما يجب أن يتسلحن به في معركة الحياة، إذا أردن حيازة الشرف الذي حازته ابنةُ عمران عليها السلام.

وبدأ بالنفخ في الفرج مع إحصانه لأنه أشدهما، ولأن نفي المسالب مقدم على ذكر المحاسن، وفي بيانه عنه عبر عنها باسم الموصول "الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا" للدلالة على أنها قد اشتُهرت بمضمون الصلة بين العالمين... وليبنى على تلك الصلة ما تفرع عنها من قوله تعالى "فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا"..." لأن كلا الأمرين موجب ثناءً، وقد أراد الله إكرامها بأن تكون مظهر عظيم قدرته في مخالفة السنة البشرية، لحصول حمل أنثى دون قربان ذكر"(١).

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والإحصان: جعل الشيء محصّنًا لا سبيل إلى دخوله، وفي التعبير به استعارة تصريحية، شُبه فيه حفظ الفرج من الرجال بالإحصان، بجامع المَنْع، للإشارة إلى أنها "عَفّت عن السوء وجميع مقدماته عفةً كانت كالحصن العظيم المانع من العدو، فاستمرت على بكريتها إلى الممات"(١).

وجيء بقوله "فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" مفرّعا عما قبله بالفاء، مع إسناد فعل النفخ إلى ضمير المولى سبحانه وتعالى بصيغة التعظيم، وبيان كيفيته بالجار والمجرور "مِنْ رُوحِنَا" الذي أضيف فيه المجرور إلى ضمير الحق جل جلاله مرة ثانية، كل ذلك لتأكيد قوة الإحصان ومنعته، ولبيان أن نفخ الله تعالى فيها من روحه كان نوعا من التشريف، والمكافأة على إحصان فرجها، بأن كوّن منه نبيا بصفة خارقة للعادة، فخلّد بذلك ذكرها في النساء بصفة عامة، وفي الصالحات الطاهرات بصفة خاصة.

وحقيقة النفخ: إخراج هواء الفم بتضييق الشفتين، وفي التعبير به استعارة تمثيلية، شُبه فيها هيئةُ التكوين السريع للطفل في رحم المرأة، بدون الوسائل المعتادة بهيئة النفخ الذي ينتج عنه امتلاء المنفوخ بالهواء على وجه السرعة، وأسند إلى ضمير الحق سبحانه وتعالى بصيغة التعظيم لأنه كان بأمر منه، ولأن خلق الجنين في الرحم بصفة عامة، وخلقه من غير الأسباب المعتادة بصفة خاصة أمران لا قدرة لأحد عليهما سواه.

والضمير المجرور بالحرف "فِيهِ" عائد هنا إلى الفرج، بينما هو عائد في قوله تعالى من سورة الأنبياء "وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ"(الأنبياء ٩١) إلى مريم عليها السلام،

(١) نظم الدرر ٨/ ٦٠.

ولعل السر في ذلك أن ذِكرَها هنا كان من باب كونها أنثى، تتمتع بخصالٍ يُضرب بها المثل لنساء هذه الأمة- سواء أكن أمّهاتٍ للمؤمنين، أم كنَّ أزواجًا لهم- مما يجعل الحديث عن النفخ في الفرج مع شدة إحصانه أمرا مناسبا للسياق الذي ورد فيه.

بينما مقصود سورة الأنبياء: "الدلالة على البعث، الذي هو إفاضة الأرواح على الأموات، مما يناسبه إضافة النفخ إليها، لا إلى فرجها وحده، ليفيد أنه- مع خلق عيسى- عليه السلام- به، وإفاضة الحياة عليه حسًا ومعنى- أحياها هي به معنى، بأن قوّى به معانيها القلبية، حتى كانت صدّيقة متأهلة لزواجها بخير البشر في الجنة"(١)، يضاف إلى ذلك- من وجهة نظري- أن الكلام عنها ورد في نهاية حديث سورة الأنبياء عن موكب الرسل الذين أنعم الله تعالى عليهم بنعمه التي غمرت كل واحد فيهم، وشملت بدنه وعافيته، ليتمكن من القيام بما كُلِّف به على خير وجه، مما يناسبه أن يكون النفخ فيها لا في جزء منها، للدلالة على العافية التي منحها الله تعالى إياها، والقوة البدنية والنفسية التي ألقاها فيها، لتكون كذلك مؤهلة لتَحَمُّل كلمة الله تعالى إليها، على الرغم من صعوبتها وعجبها وشدة غرابتها، يقويه قوله تعالى "وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ"، بتعدية فعل الجعل إليها، مع عطف ابنها على ضميرها، للإشارة إلى ما في تكوينها وتكوين ولدها من عجائب وآيات لم تكن في غيرهما من خلق الله عزوجل، يقول الشيخ الشعراوي: "ولك أن تسأل: لماذا يأتي ذِكْر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة؟ نقول: لأن النبوة اصطفاء الله لنبي من دون خَلْق الله، وكوْنه يصطفي مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة، فهذا نوع من

(١) نظم الدرر ٥/ ١٠٨- بتصرف.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الاصطفاء، وهو اصطفاء خاص بمريم وحدها من بين نساء العالمين؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرَّر، أمّا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر في غيرها أبدًا... ثم يقول تعالى: "وَجَعَلْنَاهَا وابنهآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ" يعني: شيئاً عجيبًا في الكون، والعجيبة فيها أن تلدَ بدون ذكورة، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب، فكلاهما آية لله ومعجزة"(١).

وفي قوله تعالى "مِنْ رُوحِنَا" أضيف الروح إلى ضمير الحق جل وعلا إضافة تشريف، وبيان أن الجنين الناتج عن هذا النفخ هو أمر خاص بالله تعالى، وأنه روح مبعوث من لدنه بدون وساطة الوسائل المعتادة في التكوين البشري.

وقوله "وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ" يعني: أنها صدقت ما أَوْحى الله تعالى به إليها، أو ما أخبرها به المَلَكُ عند النفخ، كما آمنت بما أنزله الله تعالى على ولدها، وبما أنزله على الأنبياء السابقين من قبله، إيمانا يرفعها إلى درجة التصديق الذي لا يخالجه شك في أي وقت من الأوقات، ولعل هذا هو السبب في تسميتها الصِّدِّيقة في قوله تعالى من سورة المائدة: "مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ"(المائدة ٧٥)، وجيء بهذا الخبر في سياقنا هذا لتعليم نساء الأمة ضرورة التصديق بما جاء به الأنبياء بصفة عامة، وضرورة التصديق بما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين بصفة خاصة، وأن مساعدته على إبلاغه، ومظاهرته في سبيل القيام به، داخل في هذا التصديق دخولا أوليا.

(١) تفسير الشعراوي/ ٥٩٣٤.

أما قوله "وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ" فيُلحظ فيه أمران:

أولهما- التعبير بالفعل الماضي "كَانَتْ" الدال- بمعناه وجرسه- على بلوغها في العبادة وما يتصل بها من طهارة وقيام وقنوت وأذكار مبلغا عظيما، لدرجة أنها أشربت بمناسكها، وصارت في تكوينها، وغدت لا تنفك عنها في جميع الأحوال.

الآخر- التعبير بجمع الذكور"الْقَانِتِينَ" المجرور بـــ"مِنَ" التي للتبعيض، للدلالة على أنها دخلت في موكب القانتين عبر الزمن دخول الجزء في الكل، بل صارت رأسا في هذا الأمر، ومضرب المثل فيه، وإيثار التعبير بـــ"الْقَانِتِينَ" دون القانتات، يمكن أن يكون من باب التغليب، ويمكن أن يكون إشارة إلى أنها بلغت في مداومتها على العبادة، وصبرها على التكاليف، وجَلَدها في القيام بها مبلغ الرجال، على الرغم من كونها أنثى، تتسم بما تتصف به الإناث من الضعف واللين، مما يجعلها مثلا للرجال والنساء على السواء.

وبهذا الختام نرى كيف تدرّج المعنى القرآني في هذه السورة؟ وكيف أخذ في الصعود حتى وصل إلى ذروته في كلمة "الْقَانِتِينَ"؟ حيث بدأ بوعظ المرأة ودعوتها إلى الكف عن شغل زوجها عن مهامه وتكاليفه، وكلفها بمشاركته في الاهتمام بالبيت ومن فيه، ثم ثنّى بتنبيهها إلى الاهتمام بمساعدته ومظاهرته من أجل القيام بواجباته، وأخيرا دعاها إلى أن تنافسه في مجال العبادة والقنوت، كما كانت مريم تنافس الرجال.

كل ذلك حتى يكون البيت واحة ينعم فيها الجميع بالراحة والسكينة والهدوء، وينطلقون منه لإسعاد أسرهم وإسعاد البشرية من حولهم، وبجانب

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هذا يكون صومعة للعبادة والتبتل، لا ساحة للمناكفات والمكايدات الشاغلة عن الأهداف العظمى والغايات النبيلة.

وبذلك تتفق خاتمة السورة مع مطلعها في التركيز على المقصود، والحث على امتثاله بطرائق متنوعة وأساليب متعددة، وهكذا "جميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها"(١)، لأن فواتحها تدور بين تحميدات ونداءات يُقصد منها إيقاظ السامع لما يلقى إليه ونحو ذلك، وخواتمها تدور بين أدعية ووصايا ونحوها مما يحسن الانتهاء به(٢).

أسأل الله تعالى أن يملأ بيوتنا بالرجال المقتدين بسيد المرسلين والنساء المقتديات بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران وأمهات المؤمنين وصل يا رب على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي ٤/ ١٣٩.

(٢) بغية الإيضاح للشيخ عبدالمتعال الصعيدي ٤ / ١٣٩. ويبدو لي أن الحقل البلاغي بحاجة إلى دراسة تنهض ببيان العلاقة بين مطالع السور وخواتيمها في ضوء المقصود الأعظم.

خاتمة الدراسة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريات وخاتم النبوات ... أما بعد،،،

فقد خلصت هذه الدراسة التي جاءت في خمسة مطالب إلى عدد من النتائج والتوصيات، على النحو التالي:

١-النتائج:

أولًا- أن الاعتناء بالأسرة يعد من المقاصد الفرعية لسورة التحريم، وأن علاج المشكلة التي كانت سببا في نزولها أدى إلى مجيء نظمها على النحو الذي تم تقسيم السورة إليه، حيث كان البدء بعرض المشكلة، ثم الالتفات بالبيان إلى من كانتا سببا فيها، بترغيبهما في التوبة والاستقامة، وترهيبهما من العدول عنها إلى ضدها، مع التهديد بالطلاق إن استمرتا على ما هما عليه، ثم الدعوة إلى الاهتمام بالبيوت، ثم التعريج على مهام الزوج وأعماله، ثم الختام بضرب المثل والمقابلة بين اثنتين من النساء كفرتا بربهما وخالفتا زوجيهما الصالحين، ورغبتا عن طريقهما، واثنتين من النساء اجتهدتا في إرضاء ربهما، وجاهدتا في سبيل ذلك حتى صارتا مضربا للأمثال في هذا الميدان، مع التصريح بعقاب الأوليين تخويفا وترهيبا، والإلماح إلى جزاء الأخريين تشويقا وترغيبا.

ثانيًا- تدرّجُ المعنى القرآني وتصاعدُه حتى وصل إلى الذروة في آخر كلمة من السورة "الْقَانِتِينَ"، حيث بدأ بوعظ المرأة ودعوتها إلى الكف عن شّغل زوجها عن مهامه وأعماله، وكلفها بمشاركته في الاهتمام بالبيت ومن فيه، ثم ثنّى بتنبيهها إلى الاهتمام بمساعدته ومظاهرته من أجل القيام بواجباته،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأخيرا دعاها إلى أن تنافسه في مجال العبادة والقنوت، كما كانت مريم- عليها السلام- تنافس الرجال.

ثالثًا- تناسب خاتمة السورة مع مطلعها في التركيز على المقصود، والحث على امتثاله بطرائق متنوعة وأساليب متعددة، حيث اعتمد المطلع على النداء، والاستفهام، والشرط، بينما اعتمدت الخاتمة على التمثيل والمقابلة، ولكل أسلوب أثره في تحقيق الغرض الذي قامت السورة لأجله.

رابعًا- على الرغم من تناول السورة مشكلة وقعت في بيت النبوة وكان الرسولﷺ طرفا فيها فإن حديثها عن بيت الرسالة جاء جاريا على عادة القرآن في تشريف الرسول اللهﷺ وتكريمه، كما أنه أومأ إلى مساندته ضد كل من يتظاهر عليه، أو يتآمر ضده، قريبا كان أو بعيدا، كما أفادت السورة التهوين من شأن ما يحاك ويدبر ضده في الخفاء، وكشفت عن أن مظاهرته تكون على قدر ما يتأثر به، لا على قدر من يتظاهر عليه.

خامسًا- تنوعت الأساليب البلاغية التي كانت طريق النظم الحكيم إلى تحقيق غرض السورة ومقصدها، على النحو التالي:

- في المطلع يبرز النداء "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" والاستفهام "لِمَ تُحَرِّمُ" والتعبير بالاسم الموصول "مَا أَحَلَّ" وتعريف المسند إليه بالعلمية "اللَّهُ"، مع تنكير المفعول "حَدِيثًا" والكناية عن التي أذاعت السر بـــ"بَعْضِ أَزْوَاجِهِ"، واستعمال أسلوب الشرط المثير إلى متابعة الأحداث التي كانت سببا في نزول السورة، والتي أدت إلى أن يأتي نظمها على الطريقة التي تم بيانها.

- وفي المعقد الثاني يبرز الالتفات إلى المخاطبتين "إِنْ تَتُوبَا ..."، والمقابلة بين التوبة والتظاهر، مع التوكيد بإن والجملة الاسمية واستعمال

ضمير الفصل والعطف بالواو "فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ"، للتهوين من شأن ما يحاك ويدبر ضد الرسول في الخفاء، ولبيان أن مظاهرته تكون على قدر ما يتأثر به، لا على قدر من يتظاهر عليه، كما يبرز تعريف المسند إليه بالإضافة إلى ضمير الرسولﷺ "رَبُّهُ" وتنكير المفعول وجمعه "أَزْوَاجًا" للتعظيم وليمكن وصفه بما يزيد من إثارة المخاطبات إلى توقير الرسولﷺ، والحرص على إرضائه، "خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا".

– وفي المعقد الثالث يبرز النداء بوصف الإيمان "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" مع التعبير عن نصح الأهل وإرشادهم بأسلوب الأمر "قُوا" على سبيل الاستعارة، وتنكير المفعول "نَارًا" لتعظيمه، وليتسنى وصفه بما يزيد في الإقبال على المأمور به "وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا ..." ، كما يبرز الاستطراد إلى ذكر أحد مشاهدها لتقوية المعنى وتوكيده "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ..."، ثم ينادى المؤمنون ويؤمرون بالتوبة المؤهلة لدخول الجنة، لتحدث المقابلة أثرها في نفوس المتلقين، وتشحذ عزيمتهم من أجل إتيان ما يدخلهم الجنة وينجيهم من النار، ويدخل فيه الاهتمام بالبيت والأسرة دخولا أوليا.

– وفي المعقد الرابع يبرز نداء النبيﷺ وأمره بجهاد الكافرين والمنافقين، وأمره كذلك بالغلظة عليهم"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ..."؛ للإعلام بعظم المهمة المكلف بها، وثقل الأمانة الملقاة على كتفيه، وأنها تتوزع بين الداخل والخارج، مما يفرض على أزواجه بخاصة معاونته ومظاهرته، لا التظاهر ضده والتآمر عليه، كما أنه ينبه النساء إلى المهام والأعمال التي تتناوش رجالهم، وتشغل عليهم عقولهم،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

في إشارة موحية إلى المرأة كي تكون عونا لزوجها، لا أن تكون عبئا زائدا عليه.

– وفي خاتمة السورة يبرز التمثيل والمقابلة المفعمة بالتراكيب المقوية أثرها في لفت نظر المتلقيات إلى أن يكنّ كامرأة فرعون ومريم ابنة عمران، في الحرص على مرضات الله تعالى، والاجتهاد في عبادته والتقرب إليه، والانصراف عما سوى ذلك من الأعمال، لا أن يكن كامرأة نوح وامرأة لوط في الكفر بالله تعالى وخيانة زوجيهما الصالحين، وشغلهما عن مهامهما، وصرف الناس عن اتباعهما.

*****

– ويبرز من أساليب الفصل والوصل بين الجمل في السورة كلها كمال الاتصال، الدال على تماسك الأسلوب وتناسق عباراته، وكذلك شبه كمال الاتصال لما له من خاصية إثارة المتلقي وتوجيهه إلى متابعة ما يقصد النظم الحكيم إلى ترسيخه ولفت الأنظار إليه.

– ويلفت النظر لجوء النظم الحكيم إلى الاستعارة في ستة مواضع، لما لها من قدرة على إبراز المعنى وإيصاله إلى المتلقي في صورة جديدة، تزيده فخامة، وتساعد على فهمه وحسن تلقيه.

– كما يلفت النظر ندرة التشبيهات، وندرة الفنون البديعية خلا الأسلوب التقابلي، لعدم حاجة المعاني إليها.

٢-التوصيات:

توصي الدراسة العاملين في مجال البحث البلاغي بما يلي:

أولا- تخصيص دراسة بلاغية في بناء الجملة الواقعة بعد الأمر والنهي في الذكر الحكيم، لإبراز خصائصها البلاغية، وسماتها الأسلوبية، ليتضح للناس بجميع شرائحهم سياسةُ النظم الحكيم في قيادة البشر وتطويعهم لما يريده الشارع الحكيم.

ثانيا- تخصيص دراسة بلاغية تقف مع مواضع تعبير القرآن بـــ: الذنب والسيئة والخطيئة والإثم، ومواضع تعبيره بـــ: العفو والمغفرة والتكفير وما يقوم مقامها، مع بسط القول في مقتضيات كل موضع وأسراره.

ثالثا- تخصيص بحث بلاغي لتناول أسرار التعبير القرآني في حديثه عن السيدة مريم ابنة عمران.

رابعا- تخصيص رسالة علمية لدراسة علاقة خواتيم السور القرآنية بمطالعها في ضوء المقصود الأعظم لكل سورة.

والحمد لله في الأولى والآخرة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثبت بالمصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- أساليب الإنشاء الطلبي وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية- د. محمود موسى حمدان- مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية- العدد الثاني عشر.
- الاستفهام القرآني دقائق ورقائق- د. محمود توفيق سعد- بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية - العدد العاشر.
- الإيضاح لتلخيص المفتاح بشرح الشيخ عبدالمتعال الصعيدي- الطبعة السابعة عشرة- مكتبة الآداب- مصر.
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي- تحقيق/ صدقي محمد جميل- طبعة ١٤٢٠هـ- دار الفكر - بيروت.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي- تحقيق/ مصطفي عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية - بيروت.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح- للشيخ عبدالمتعال الصعيدي- الطبعة السابعة عشرة- مكتبة الآداب- مصر.
- البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف- د. محمد أبو موسى- الطبعة الثانية - مكتبة وهبة.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور- الطبعة الأولى- مؤسسة التاريخ العربي- بيروت- لبنان ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم- د. عبدالعظيم المطعني- مكتبة وهبة.
- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي- تحقيق/ فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل-الطبعة الأولى- ١٤١٣هـ/١٩٩٣م- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- العزف على أنوار الذكر د. محمود توفيق سعد - بدون دار طباعة.
- خصائص التراكيب- د. محمد أبو موسى- الطبعة السادسة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م- مكتبة وهبة.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي- تحقيق/ مركز هجر للتراث- نشر دار هجر- مصر- ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى- الطبعة الثانية - مكتبة وهبة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

- دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجاني- تحقيق العلامة/ محمود شاكر- مطبعة المدني ونشر الخانجي- القاهرة.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني- للمالقي- تحقيق أحمد الخراط.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي- دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- سنن ابن ماجة- تحقيق محمود خليل- مكتبة أب المعاطي.
- شذرات الذهب- د. محمود توفيق محمد سعد- بدون.
- صحيح البخاري- ط دار الشعب – القاهرة- ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- صحيح مسلم- دار الجيل- بيروت- لبنان.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح- بهاء الدين السبكي- دار الكتب العلمية- بيروت.
- غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري- تحقيق/ زكريا عمران- مطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين سليمان بن عمر الجمل- دار إحياء الكتب العربية.
- في ظلال القرآن لسيد قطب- الطبعة العشرون- دار الشروق- القاهرة.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- للزمخشري- تحقيق/ عبدالرازق غالب المهدي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- لسان العرب لابن منظور- الطبعة الأولى- دار صادر- بيروت.
- المطول على التلخيص- سعدالدين التفتازاني- المكتبة الأزهرية للتراث.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب- ابن هشام الأنصاري- دار الفكر.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني- تحقيق/ د. محمد أحمد خلف- مكتبة الأنجلو.
- مقاييس اللغة لأحمد بن فارس- تحقيق/ عبدالسلام هارون- طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م- نشر اتحاد الكتاب العرب.
- النبأ العظيم- محمد عبدالله دراز- الطبعة الثانية- مركز إبصار للنشر والتوزيع- القاهرة-١٤٢٧هـ/٢٠١٦م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي- تحقيق/ عبدالرازق غالب المهدي- دار الكتب العلمية- بيروت.

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	الصفحة
-	ملخص	٢١٠٣
-	Abstract	٢١٠٤
١.	المقدمة.	٢١٠٥
٢.	بين يدي السورة... سبب نزولها- موقعها في السياق الترتيلي.	٢١٠٩
٣.	مطلع السورة: من أسرار النداء والعتاب .	٢١١٣
-	علاقة الآيات بالسياق.	٢١١٣
-	مزايا نداء النبي في مقام العتاب وأسراره.	
-	مزايا الاستفهام في قوله: "لم تحرم" وأسراره.	
-	سر التعبير بالفعل "تحرم"، وأثر المقابلة بينه وبين "ما أحل الله لك."	
-	مزية فصل قوله: "قد فرض الله لكم..." عما قبله وأسرار تركيبه.	
-	أسرار القصر في قوله "وهو العليم الحكيم."	
-	أسرار الاستئناف والتركيب في قوله: "وإذ أسر النبي."...	
٤.	المعقد الثاني: من أسرار الترغيب في التوبة والتهديد بالطلاق.	٢١٣٣
-	علاقة الآيتين بالسياق.	٢١٣٣
-	مزايا الالتفات في قوله: "إن تتوبا ..." وأسراره.	
-	أسرار مجيء "القلوب" فاعلا للفعل "صغت"، وأسرار العدول عن ثنيته إلى الجمع.	
-	أسرار المقابلة بين قوله: "إن تتوبا..." وقوله "وإن تظاهرا عليه..." وخصائصها.	
-	أسرار التركيب القرآني "وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير."	
-	سبب فصل قوله: "عسى ربه..." عما قبله، وأسرار العدول عن خطاب المثنى إلى الجمع فيه، وأثر الاعتراض بالشرط "إن طلقكن" بين اسم عسى وخبرها، وسر تنكير المفعول "أزواجا" ووصفه بما ورد "مسلمات..." ولطائف ترتيب تلك الصفات.	
٥.	المعقد الثالث: من أسرار الدعوة إلى الاهتمام بالبيت.	٢١٥١
-	علاقة الآيات بالسياق.	٢١٥١
-	أسرار نداء المؤمنين وتقديمه على الأمر في قوله: "قو أنفسكم."...	
-	الغرض من الأمر في قوله: "قو أنفسكم..." ومزية الاستعارة فيه، وأسرار تقديم الأنفس على الأهل.	

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

-	أسرار تنكير المفعول "نارا" ووصفه بقوله: "وقودها..." وقوله: "عليها ملائكة."...	
-	سر الاستطراد والنداء في قوله: "يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا"...	
-	سر فصل جملة: "إنما تجزون ما كنتم تعملون..." عما قبلها، ومزايا تركيبها.	
-	مناسبة نداء المؤمنين وأمرهم بالتوبة النصوح في سياق السورة.	
-	مزية وصف التوبة بالنصوح وأسراره البلاغية.	
-	أسرار تعليل الأمر بالتوبة بجملة: "عسى ربكم..." وما فيها من دقائق النظم .	
-	أسرار التعبير بالظرف في قوله" "يوم لا يخزي الله النبي"...	
-	أسرار التذييل بقوله: "إنك على كل شيء قدير."	
٦.	المعقد الرابع: من أسرار الإبانة عن مهام الزوج وأعماله.	٢١٧٩
-	علاقة الآية بالسياق.	٢١٧٩
-	أسرار نداء النبي، وأمره بجهاد الكافرين والمنافقين على الترتيب، وسر أمره بالغلظة عليهم، ووجه ارتباط ذلك بمقصود السورة.	
٧.	خاتمة السورة: من أسرار التمثيل والمقابلة بين امرأتي نوح ولوط وامرأة فرعون	
-	ومريم ابنة عمران.	
-	علاقة الآيات بالسياق.	
-	أطراف التمثيل في قوله: "ضرب الله مثلا..." ومزاياه.	
-	السمات البلاغية للمقابلة بين المرأتين الكافرتين والمؤمنين.	
-	سر التقابل بين الكفر والإيمان، وسبب تقديم الأول وتأخير الثاني .	
-	سر التعبير بلفظ: "امرأت" مع كتابة تائه مفتوحة.	
-	سر التصريح بعقاب الأوليين والإلماح إلى جزاء الأخريين.	
-	أسرار التركيب في ضراعة امرأة فرعون.	
-	أسرار التعبير القرآني في بيان السورة عن مريم ابنة عمران.	
٨.	خاتمة الدراسة.	٢١٩٩
٩.	ثبت بالمصادر والمراجع.	٢٢٠٥
١٠.	فهرس الموضوعات.	٢٢٠٧